رمان تاریخی

۴۳۴۹

روایة ملک الجبال او لصوص الیونان
(ترجمه از زبان فرانسوی)
۱۹۰۳ مصر - چاپ سربی
موضوع: حکایت

۳
۱۶۹

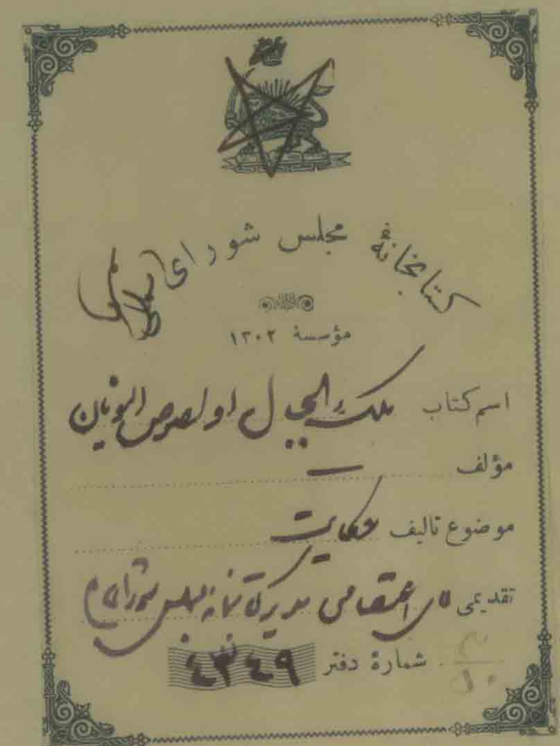
کتابخانهٔ مجلس شورای اسلامی
مؤسسهٔ ۱۳۰۲
اسم کتاب ملک الجبال او لصوص الیونان
مؤلف —
موضوع تالیف حکایت
تقدیمی ... مدیریهٔ تحفه بمجلس شورای ...
شمارهٔ دفتر ۴۳۴۹

کتابخانهٔ مجلس شورای اسلامی

رمان تاریخی

۴۳۴۹

روایة ملک الجبال او لصوص الیونان

(ترجمه از زبان فرانسوی)

۱۹۰۳ مصر - چاپ سربی

موضوع: حکایت

۳
۱۶۹

کتابخانه مجلس شورای اسلامی
مؤسسة ۱۳۰۲
اسم کتاب ملک الجبال او لصوص الیونان
مؤلف —
موضوع تالیف حکایت
تقدیمی ... کتابخانه مجلس شورای اسلامی
شمارهٔ دفتر ۴۳۴۹

کتابخانهٔ مجلس شورای اسلامی
۳
۱۶۹

کتابخانهٔ مجلس شورای ملی
۱۳۲

رواية ملك الجبال

او

لصوص اليونان

ادبية غرامية تاريخية

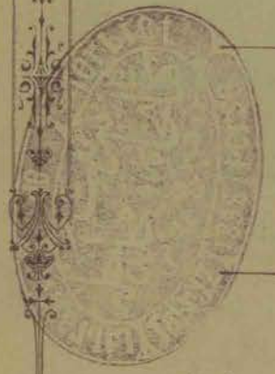

مترجمة

من اللغة الفرنساوية

بقلم احد الادباء

طبعت على نفقة

منصور عبد المتعال وحسين افندي شرف

حقوق اعادة الطبع محفوظة لهما

ثمن النسخة الواحدة عشرة غروش صاغ

(طبعت بمطبعة التوفيق بشارع كلوت بك بمصر سنة ١٩٠٣)

تقدیم کتابخانه مجلس شورای ملی
۱۰ اردیبهشت ۱۳۰۵

مقدمة للمترجم

تاريخ ملك الجبال رواية أدبية القها ادمون ابوت منتقداً بها أعمال اليونان فلست اشاركه في ما قاله لاني ناقل وما على الناقل من لوم ولكن :

(قد قيل ماقيل ان صدقا وان كذبا * فما احتيالك في قول اذا قيلا)

ولم اترجمها الا اجابة لطلب احد الاصحاب فمربتها اضطراراً لا اختياراً راجياً من القراء الكرام المعذرة عما بها والسلام .

الفصل الاوّل

مقدمة للمؤلف

أو

هرمان شيلتز

في ٣ تموز سنة ١٨٥٦ عند الساعة السادسة صباحاً بينما كنت منكباً على سقي نباتاتي في الجنينة دخل اليَّ شاب أشقر اللون ببرنيطة المانية ومنظارين من ذهب ومتشح برداء واسعٍ ولابس حذاء عريض الموطئ وواضع في جيب جبته غليوناً صينياً فسلمت عليهِ سلاماً وديّاً خالياً من كل تصنع فأجابني باللغة الافرنسية ولكن بنغمةٍ غريبة

— انني أدعى هرمان شيلتز وقد ذهبت موخرًا الى بلاد اليونان وكتابك كان معي في كل الاماكن .

فبراعة هذا الاستهلال أثرت في جداً حتى ان صوت الغريب ظهر لي أطرب من موسيقى موزارت وصرت أنظر اليهِ نظرة التودد والشكر لانك لا تدري أيها القارئ كم نحب ونكرم من يهتمون بقراءة كتبنا ومن جهتي انا فاني لم أود ان أصير غنياً الا لكي أنفق على الذين يقرأون كتبي

فأخذت بيد هذا الرجل اللطيف وأجلسته على أحسن مقعد في الجنينة وصار يخبرني بأنهُ نباتي وانهُ كان مرسلاً من طرف جنينة النباتات في هامبورغ الى أثيناوانه فضلاً عن النبات قد درس ولاحظ البلاد والحيوانات والناس

فكان يعبر عن أفكاره بلطفٍ و بشاشةٍ وكلامهُ المختصر والمفيد دل على انهُ متيقن ما قاله وقد أخبرني تقريباً عن الاشخاص الذين ذكرتهم بكتابي فما مضت علينا ساعة الا واصبحنا وان كنا حديثي العهد صاحبين لا تنحل عرى ودادهما فصرنا نتحادث في مواضيع شتى ولكن لم نشعر الا وقد دخلنا في أخبار اللصوص ولا أعلم من

ابتدأ بذلك (ان المسافرين الذين يجولون في ايطاليا يتكلمون عن التصوير والذين يجولون في انكلترا عن الصناعة فكل مملكة لها خواص) يتكلمون والذين يجولون البلاد اليونانية يتكلمون عن اللصوص

— اصحيح يا سيدي انلا يزال في بلاد اليونان لصوص الى الآن وهل صادفت أحدًا منهم

— نعم أيها العزيز فاني أقدر ان أتكلم بتأكيد عن اللصوص لاني بقيت أسيرًا نحو خمسة عشر يومًا عند زعيمهم الحاج ستافروس الملقب بملك الجبال فاذا كان حديثي الطويل عنهم لا يرعبك ولا تملهُ فاني مستعد ان أخبرك عن سفرتي الى هناك وبعد ذلك افعل بها ما شئت : قصةً أو حادثةً أو سيرة تاريخية (لان ما انا مزمع ان أقوله لك هو من التاريخ) تضيفها الى كتابك المحتوي على كل الاخبار الحقيقية

— انني اشكر ألطافك وكلي اذان لاستماعك فلمَّ بنا الى المكتب حيث نتقي حرارة الشمس ونبقى متمتعين بالروائح العطرية التي تفوح من الجنينة

فمشيت وبينما كان يردد هذه الاغنية اليونانية :

حورية نزلت والسعد يتبعها نحو السهول فيا رباهُ تحمينا
تدعوا الجوارح نحوي بادري عجلاً حتى اغذيك من حكام أتينا

وبعد اذ دخلنا الغرفة تربع على المقعد ونزع جبته واشعل غليونهُ وابتدأ بحديثه وأنا اكتب كل ما أسمعهُ منهُ

الفصل الثاني

واني وان كنت من الذين يصدقون كل ما يسمعونهُ من العلماء داخلني الشك في ما كان يحدثني به نظرًا لغرابته حتى انيلم اتمالك عن ان أسالهُ عدة مرار ان يكلمني الجد ولا يهزأ بي فكان يتكلم بدون تلعثم وبدون ان يبدي حراكاً الى الظهر ولم

ينقطع عن الحديث الا مرتين وذلك لكي يشعل غليونه وكان يدخن بأوقات متساوية نظير آلة بخارية فكلما رفعت نظري اليه رأيته مبتسماً وحوله ضباب من الدخان مثل جوبيتر في الفصل الخامس من امفتريون

وعند الساعة الواحدة بعد الظهر أتى الخادم وأخبرنا بأن الطعام معد فهرمان جلس أمامي حالاً زالت كل الشكوك التي لم تزل تناجيني عند ما نظرت قابليته للاكل لان من ضميره يوبخه لا يأكل كثيرًا فهذا الشاب الالماني كان لا محالة محدث صادق فقابليته دلت على صدق كلامه ولما أخبرته بما كان يرتابني من الشكوك تبسم تبسماً لطيفاً للغاية فمضى النهار كله وأنا اتجاذب أطراف الحديث مع هذا الصديق الحميم والحديث العهد ومع ذلك تشكيت من قصر الوقت ولما صارت الساعة الخامسة مساءً اطفأ غليونهُ ولبس جبته ومد يدي قائلاً

— استودعك الله

— الى الملتقى

— انني أتمنى ذلك من صميم الفؤاد ولكني مسافر الآن على السكة الحديدية ولا أتأمل ان أراك ثانيةً

— بالاقل اعطني عنوان منزلك لربما أراك في هامبورغ

— واأسفاه يا سيدي فانني لا أعلم أين يكون مقري فالمانيا واسعة

— ولكن اذا كتبت حديثك هذا أفليس من الضروري أن اطلعك عليه

— لا تشغل خاطرك بهذا الخصوص فحالما يطبع الكتاب أراه فاقرأه استودعك الله

الفصل الثالث

فبعد ذهابه رجعت الى مخدعي وصرت اقرأ بامعان وتأملٍ ما أملاه علي فوجدت به بعض حوادث غير مطابقة لبعضها البعض ولكنها لا تنافي ما نظرته في بلاد اليونان

ومع ذلك لم أسلم الكتاب الى المطبعة لانه لو كان حديث هرمان كذباً ألا اكون أنا ايضاً مسئولاً عنه لكوني كنت السبب في طبعه . واذا طبعت تاريخ ملك الجبال بدون ان استفهم عن صحته الا اكون معرضاً لتنديد صحف آتينا وخصوصاً السيكتاتير اوريان فهذه الجريدة قد اختلقت بانني اعرج أفمن الضروري أن اجعل لها واسطة أخرى لتقول عني انني أعمى ؟

فبعد ما ضربت اخماساً لاسداس نسخت حديث ملك الجبال نسختين وارسلت الاولى الى رجل ذي ثقة يوناني من آتينا يدعى المسيو باتروتيس بسيفتيس ورجوته ان يخبرني عن كل غلط وقع من صاحبي في حديثه ووعدته بان اطبع تحريره في آخر الكتاب وسلمت النسخة الثانية الى المطبعة من دون ان أغير فيها ولا حرفاً لانني لو فتحتها لصرت رفيق هرمان بالعمل والعياذ بالله فانني اترك له المحل والكلام فهذا هرمان الذي يكلمكم الآن مدخناً بغليونه الصيني وناظراً اليكم من وراء مناظريه الذهبيين .

الفصل الرابع

فوتين

من النظر الى ثيابي تقدر ان تستدل على مدخلي السنوي لا يزيد عن عشرة آلاف فرنك فاني ابن مستخدم بالسكك الحديدية ولي ستة اخوة فاليوم الذي ارسلت فيه من قبل جنينة النبات كان عيداً عند العائلة لان سفري هذا ليس فقط يزيد أكل اخوتي بنقصاني منهم ولكن لاني أخذت راتباً شهرياً مائتين وخمسين فرنكاً ودفعة واحدة خمسمائة فرنكاً كمصاريف لاجل السفر فهذا المبلغ غنى فاحش لمن هو مثلي ومن ذلك الوقت دعوني تاجر البقر عوضاً عن لقب دوقتور لاني على زعمهم أصبحت غنياً وكانوا يتوقعون ان عند رجوعي من آتينا أتعين استاذاً في

المدرسة الكلية ولكن والدي كان له فكر آخر وهو اني ارجع من هنالك متزوجاً باحدى الاميرات لانه قرأ بعض روايات تويد زعمه وكان مقتنعاً بان الحوادث المسرة والمبهجة لا تتم الا في السفر وكان يذكر لنا ثلاث مرات أو اكثر في الاسبوع سيرة اقتران البرنسس بيدوف بالقائمقام رينود . فالبرنسس بيسوف كانت قاطنة في الطابق الاول مع امرأتين لاجل ترتيب الغرفة والسامين فكانت تدفع عشرين فلورين عن كل يوم والقائمقام الفرنساوي كان يدفع كل يوم فلورين ونصف ومع ذلك لم يمر شهر الا وقد ذهب مع الاميرة المسكوبية فلماذا اذاً اخذت اميرة مسكوبية قائمقاماً فرنساوياً في مركبتها ؟ أليس لكي تتزوجه ؟

فأبي كان يراني بنظره الوالدي اجمل واظرف واكمل من القائمقام رينود وكان معتقداً ابانني سأجد اجلاً او عاجلاً اميرة تكون السبب في غنى عائلتنا وان لم اجدها في اللوكاندات ففي السكك الحديدية او في السفن البخارية .

وعشية ذهابي شربنا قنينة من النبيذ المعتق وبالصدفة سقطت آخر نقطة من القنينة في قدحي فامتلأت وقتئذ عينا والدي من وقوع الفرح لان هذه العلامة تدل على قرب الزواج فكتمت ما بي رغماً عني مع اني كنت عالماً بان البرنسسات لا يقطن في الطابق الثالث ولا يسافرن في المحلات الوسطى كما كنت مضطراً ان افعل نظراً لدخلي . بالاختصار سافرت الى البيره بدون ان اجد في طريقي ولا اميرة . في اثناء كل شيء كان يباع باسعار باهظة نظراً لحلول العساكر الاجنبية بها . فكان من المستحيل ان انزل في فندق انكلترا او لوكاندة الغرباء ولكن كنشلير دولة المانيا الذي اعطيته ورقة توصيه انتخب لي محلاً عند رجل حلواني يدعى كريستوديل في زاوية بين شارع هرميس ومحل فسحته القصر .

كريستوديل كان قائمقام في معسكر المشاة ولم يزل يقبض راتبه تقاعداً وكان يحمل نيشاناً أي صليباً حديدياً أخذه تذكاراً لحرب الاستقلال وكان يلبس اللبس الوطني برنيطة حمراء بشرائط زرقاء وصدرة مفضضة وتنورة بيضاء وجزمة مذهبة ومع كل

هذا كان يتعاطى بيع الثلج والحلويات وامرأته مارولا الضخمة نظير كل اليونانيات اللواتي تجاوزن سن الخمسين اشتراها بثمانين غرشاً وقت الحرب (لما كان هذا الصنف عالي الاسعار) ومع كون مسقط رأسها جزيرة هيدرة كانت تلبس على ذي أثينا أي صدرة من مخمل اسود وفسطاناً فاتح اللون وشريطة حريرية سوداء بين جدايل شعرها وكانت كزوجها لا تعرف ادنى كلمة المانية ولكن ابنهما ديمتري خادم المحل كان يتكلم تقريباً بكل لغات أوروبا ولم احتاج الى ترجمان لاني اعرف قليلاً من الانكليزي واليوناني والتلياني والفرنساوي .

فاعطاني الفندقي او بالحري صاحب المحل غرفةً حقيرةً مفروشةً بما يأتي مائدة من خشب وكرسيين من قش وفراش وغطاء من القطن وسمح لي تكرماً وتبرعاً بسرير من خشب للفراش الذي تستغني اليونان عنه بكل سهولة و بالاختصار كنت عائشاً حسب العاده اليونانية .

فكنت أفطر من السحاب واتغدى لحماً وزيتوناً وسمكاً واتعش خضراً وعسلاً وحلواً وكنت اتذكر بلادي وأتوق الى رؤياها حينما يكون بالصدفة على المائدة فخذ خروف ولكن دخان آتينا وخمرها عوضاً على ما فقدته من لذيذ المآكل وخصوصاً خمر سانتوريس التي لا اعلم من اين كان يحضرها فانها بدون مبالغة اهل لان توضع على موائد الملوك فهي صفراء كالذهب شفافة كالزجاج لامعة كالشمس فيخال لي ان أراها الآن منيرةً لامعةً في قنينتها الواسعة موضوعة على مشمع كان يغنينا عن الغطا ولم اكن اشرب منها الا قليلاً لانها كانت مسكرة جداً حتى اني بعد الاكل كنت أنشد أشعاراً وأتأمل بآثار الجمال الباقية على وجه مارولا الضخمة .

وكنا خمسة أنفس في بيت كريستوديل المسيو هيوليت مير بن وجيكاموفوندي ولويستروجان هاريس وانا .

فالمسيو هيوليت مير ين رجل فرنساوي متوسط العمر اشقر اللون لطيف ولكن كثير الكلام فلو كان كل سكان فرنسا مثله لكانت والحق لا يعلى عليه شعباً

ساقطاً فكان مشغوفاً بعلم الآثار القديمة على ما قال لي وبمحبة الانسان وهو عضو في عدة جمعيات علمية وشركات لأجل عمل المعروف ومع كل غناه وكرمه الحاتمي لا أتذكر بأنه أعطى أحد الفقراء فلساً ومن جهة معارفه في علم الآثار القديمة فكانت أشهر من أن تذكر فقد نال جائزة لا أعلم من أي جمعية لاجل خطبة حدد بها سعر الورق في زمن اورفه فمتشجعاً بهذا النجاح الاولى سافر الى بلاد اليونان لكي يأتي بعمل أخير مهم جداً وعلى الغالب كان يريد ان يحدد مقدار الزيت الذي احترق في قنديل ديموستنيوس عند ما كتب الفيليبيك الثانية !

وجيكاموفوندي كان رجلاً مالطياً فقيراً مستخدماً لا أعلم بأي قونسلاتو بمعاش مائة وخمسين فرنكاً لاجل ختم المكاتيب فالطبيعة التي عمرت جزيرة مالطه لكي لا ينقص عدد الشياطين في الشرق اعطت لجيكامو كتفين وزراعين نظير الجبابرة القدماء فقد خلق ليلعب ويحرك النبوت وليس لختم المكاتيب بالشمع الاحمر ولم يكن يدخل اللوكندة الا وقت الاكل فكان يساعد مارولا في اعداد المائدة وكان يأكل مثل غول فانني لا أنسى مطلقاً قرقعة فكيه ولمعان عينيه وبياض اسنانه أو بالحرى أحجار الطاحون وينبغي ان اذكر بأنه لم يبق في ذاكرتي من حديثه ولا أثر لان معرفته كانت قاصرة ومحدودة و بالضد قابليته التي لم يكن يعرف لها حدود فكريستوديل ولو كان يأخذ منه زيادة عن المعتاد عشرة فرنكات لم يكن يكسب منه شيئاً . وهذا المالطي العديم الشبع كان يأكل زيادةً عن الغدا صحناً من الجوز وكان يكسره بفركه بين ابهامه واحدى الاصابع فكريستوديل كان يرتعد أسفاً لاجل فاكهته ولكنه كان مبسوطاً بوجود هكذا جبار على المائدة . فصورة جيكاموفوندي كانت كأنها خلقت لترعيب الاولاد الصغار فانه كان أشد بياضاً من كل عبد خلق على وجه البسيطة وشعره المتلبد والنازل لحد حاجبيه كان يغنيه عن برنيطه و بالضد رجلاه فانهما كانتا صغيرتين جداً وساقيه ممشوقين ولكن وا أسفاه هذا الجمال لم يكن يفيده شيئاً فحينما يكون على المائدة يبتدئ شخصه من عند

مساواة سطحها والباقي لا يعتد به . ووليم لويستر الذي لا اتكلم عنه الا مثل انسان وجد في جمعيتنا فكان ملاكاً أميركانياً أشقر اللون أزرق العينين لايتجاوز العشرين سنة وكان مرسلاً الى الشرق من طرف محل لوبستر وأولاده ليفحص الصادر من تجارته فكان يشتغل في بحر النهار عند فيليب اخوان والمساء يقرأ بعض الجرائد وفي الصباح يذهب الى الصيد .

فالشخص الاكثر أهمية في جمعيتنا بدون خلاف جان هاريس خال لويستر المتقدم ذكره ومن اول مرة اجتمعت معه فهمت منه كل أميركا فانه ولد في فاندليا من الايليندا وتنشق هناك هواءً صافياً منعشاً للابدان هواء العالم الجديد النقي ولست أعلم اذا كانت عائلة هاريس غنية أم فقيرة واذا كانت وضعت ابنها في المدرسة أم لا بل جل ما أعرفه هو انه في السنة السابعة والعشرين كان لا يتكل على أحد ولا ينتظر شيئاً الا منه لا يندهش من شيء ولا يعتقد بالمستحيل ولا يتاخر مطلقاً عن ان يتأمل كل شيء ويجرب كل شيء ينهض اذا سقط ويبتدىء عمله ان لم ينجح من أول مرة لا يتوقف أبداً ولا ييأس ولا يجبن ولو فشل فكان زراعاً ثم محامياً ثم منشيء جريدة ثم مفتشاً على الذهب صانعاً تاجراً فقد قرأ كل شيء ونظر كل شيء وساح بأكثر جهات الدنيا ولما تعرفت به كان ربان باخرة حربية صغيرة وكان يحاول حل مسألة المشرق في جريدة الريفي ده بوستون وكان يشتغل أيضاً مع محل في كل كاكنتا ومع كل اشغاله كان يجد وقتاً آخر ليأتي ثلاث وأربع مرات في الأسبوع ويأكل مع ابن اخته ومعنا .

ويظهر لك طبع هاريس من الحديث الآتي : « في سنة ١٨٥٣ كان شريكاً « لمحل في فيلادلفيا وابن أخته الذي كان وقتئذ في السابعة عشر من عمره ذهب ليزوره فوجده شاخصاً ويداه وراء ظهره في بيت تلتهمه النار فضربه بلطف على كتفه فالتفت جان وقال له

— هذا انت ؟ اهلاً وسهلاً ولكنك أتيت في وقت منحوس فهذه النار قد

خربتني فان لي في المحل ٤٠ الف دولار

— وما تعمل اذاً ؟ سأله الولد المندهش

ما اعمل ؟ الآن الساعة الحادية عشر وقد جعت فهيا بنا لنتغدى . فهاريس هو احد الرجال الرشيقي القامه المهذبين جبهته عالية ونظره الصافي كان يقدح ناراً فالاميركانيون كاملو الاجسام أتدري ما السبب في ذلك ؟ لانهم ما ينمون في حرية وتمدن محصور بل عقلهم وجسمهم ينميان كيف حسن لديهما فمدرستهم الهواء النقي واستاذهم التمرين ومرضعتهم الحرية . فلم يكن لي شغل مع المسيو ميرينه وكنت انظر الى جيكامو كحيوان غريب وهائل وكان لا يلبس غير الابيض لانه اسود ولوبستر كان عندي تقريباً لا اهمية له فالشخص الوحيد الذي كان حائزاً على محبتي ورغائبي هوجان هاريس فهيئته البشوشة واحواله البسيطة وطبعه الظريف واخلاقه الحسنة وكلامه اللطيف وحدة اطباعه كلها كانت تجذبني اليه والى محبته لاننا دائما نحب ما ليس فينا ولا عندنا منه .

اما اليونان فلم اكن اخالطهم أبداً اذ لم اذهب الى القهوة ولا الى التياترات لان اذني اللطيفتين كان يخدشهما سماع الالحان النافرة ولم اكن أقرأ الا صحيفة الياندور وجريده منيرفه فلم اكن عائشاً الا بين نباتاتي ورفقائي في اللوكاندة وجان هاريس ولكني اعطيت ورقتي وعنواني الى رئيس الاحتفالات ونظراً للقبي العلمي كنت متوكداً انني ادعى اذا صارت دعوة رقص الى القصر وكان عندي لاجل هذه الدعوة بدلة حمراء مزركشة بالفضة أعطتني اياها خالتي حين سفري وكانت بدلة المرحوم زوجها الرسمية فاخي البكر قال بانني اكبر من صهري وان الكمين لا يغطيان ذراعي ولكن ابي اعترض قائلاً بان التزركش يدهش العينين وان الاميرات لا يعتنين بامور كهذه ولكن من نحسي وشؤم طالعي لم تصر ولا دعوة في القصر وان تكلمت الناس عن دعوة عمومية فكلام الشعب لا يعتد به وخصوصاً هذا الخبر لم يكن مذكوراً الا في الصحف النصف رسمية التي لا ينبغي الركون اليها فقضيت اذاً

ملذات الشتا با كل الفواكه نظير الخوخ واللوز والليمون . وذروسي في علم النبات كانت نظير ملذاتي أي ماشية على قدم المتماهل والبطي الى الغاية فجنينة النبات في أتينا لا تحتوي الا على ما لا يستحق الذكر فانها ككيس يكاد يفرغ واما الجنينة الملكية فانها محتوية على كل انواع النباتات المعروفة بعناية أحد الفرنساويين المسيو باروت ومع ان هذه الجنينة لا تدخلها العامة الا في اوقات معينة بكل اسبوع كنت أبقى هناك أياماً كاملة لان الحراس لا يمنعوني عن الدخول لكوني كنت اتكلم معهم باليوناني والمسيو باروت بسببي كان يجد رفيقاً يتكلم معه لغته الافرنسية ويبحث معه عن علم النبات وفي غياب المؤمى اليه كنت اتكلم بالالماني فهذه الوسائط كانت تسهل لي اسباب الدخول واما في البرية فكان تفتيشي على النبات نادراً لان اللصوص كانوا يحيطون بالمدينة احاطة الهالة للقمر ولست جباناً لاخافهم كما ستعلم من حديثي هذا ولكني لا اريد ان افقد حياتي التي اخذتها هدية من أهلي فساحفظها قدر ما امكن تذكاراً لابي وأمي

في شهر نيسان سنة ١٨٥٦ كان الخطر عظيماً لمن يخرج خارج المدينة فلم اكن اذهب الى شاطئ النهر الا وافتكر بالمسكينة مادام داورد التي سلبت دراهمها في منتصف النهار وتلال الدوفينة كانت تفكرني باسر ضابطين فرنساويين وطريق البيرة باللصوص الذين كانوا يذهبون في العربات نظير المحتفلين في عرس ويصطادون المارين وطريق اليانتيليك كان يذكرني بتوقيف الدوق بيزانس وتاريخ جان هاريس ولو بستر الذي حدث معهما موخراً فانهما كانا راجعين من التنزه ممتطيين حصانين من جياد الخيل فوقع في فخ لصين بالسلاح الكامل اوقفاهما عند منتصف الجسر ونظرا أيضاً في الساقية اثنى عشر لصاً آخرين مدججين بالعدد وبينهم خمسين من الاسارى فكل الذين مروا بهذا الطريق في ذلك النهار سلبوا امتعتهم وتقيدوا حتى لا يشيع الخبر فجان هاريس وابن اخته كانا بدون سلاح فقال الاول للثاني :

— لنعطهما ما معنا من الدراهم ولا نخاطر بانفسنا لاجل عشرين دولار

فاللصان اخذا الدراهم واشارا الى الاميركانيين نحو الساقية فهاريس فقد صبره لما علم انه سيقيد لانه ليس من حطب فيحزم وباشارة منه الى لو بستر فاجأ اللصين بضربتين فسقط الواحد منهما مغمياً عليه والآخر وقع من فوق حاجز الجسر وسقط بين رفقاه وجان هاريس ولو بستر أعملا المهماز في جواديهما ونهضت العصبة كلها واطلقت عليهما الرصاص فقتلت الجوادين ولكن الاميركانيين هربا ركضاً واخبرا الضابط بذلك فتوجه الجند للتفتيش ولالقاء القبض على اللصوص ثالث يوم وقوع الحادثة

ولما بلغ كريستوديل الخبر تأسف جداً على الجوادين ولكنه لم يلفظ ولا كلمة تدل على حنقه على اللصوص بل قال

— ما ذا تريدون هذه مهنتهم

فكل اليونانيين هم نظير صاحبنا هذا ليس لان اللصوص لا تأخذ منهم شيئاً ولكن حين يسلب اليوناني يقول

— ان الدراهم لم تخرج من العائلة

فانه نظير المرأة التي يضربها زوجها وهي تتعجب من مقدرته على الضرب والعلماء الذين كانوا يتشكون من هذه الاحوال كانوا نظير والد يضرب ابنه بالظاهر ويحبه بالباطن .

فحين دخولي أتينا كان حاج ستافروس غضب الرب وصاعقته ففي القهاوي والاجتماعات والطرق والمراسح وحفلات الموسيقى كانوا لا يتكلمون الا عن الحاج ستافروس ولا يحلفون الا بحاج ستافروس الحاج ستافروس الذي لا يغلب الحاج ستافروس مرعب الجنود الحاج ستافروس ملك الجبال !!

وفي بعض الاحيان والعياذ بالله كانوا يقدمون له الضحايا تكفيراً عن ذنوبهم ففي نهار أحد لما كان هاريس موجوداً معنا سألت كريستوديل عن الحاج ستافروس فأخبرنا بأنه يعرفه وانه كان رفيقه عند حرب الاستقلال حينما كانت اللصوصيه غير مشهورة وبعد ما شرب قدحاً من النبيذ ومسح شاربيه ابتدأ بحديث طويل متقطعاً

بتنهدات فأخبرنا بأن الحاج ستافروس ابن خوري جزيرة ثنيوس لا أعلم ولد في أي سنة لان جميع اليونان لا يعرفون تاريخ ولادتهم فأبوه علمه القراءة أملاً ان يدخله في سلك الكهنوت وارسله الى أورشليم ومن ذلك الوقت زيد على اسمه لقب الحاج أعني قد زار الاراضي المقدسة وعند رجوعه أسره لصوص البحر وأدخلوه في سلكهم فصار يسلب الناس نظير رفقائه ولكنه بعد مدة طويلة ملّ لانه كان يشتغل لغيره فاعتمد ان يسلب لنفسه واذ لم يكن عنده لا مركب ولا دراهم ليشتري بها اخطار ان يتعاطى اللصوصية في البر ووقت عصيان اليونان صار يسلب جميع النـاس حتى لم يحارب العدو فقط بل قلما مرّ قرب قرية سواء كانت يونانية أو غير يونانية الا أخذ ما فيها من الغنائم فكل الدراهم كانت عنده على حد سوا ان أتت من العدو أو من الصديق فهذا السلوك أغناه غنى فاحشـاً وتـارعت كل الرعاة للانتظام تحت رايته . والممالك المتحدة التي كانت تحامي وقتئذ عن دولة اليونان سمعت بحروبه مع العدو ولم تسمع بسرقته فصارت ترسل اليه الهدايا والذخائر حتى الشعراء في باريس مدحته بأحسن القصائد وأهالي مدينة سنت جرمن أهدوه علماً مزركشاً بالفضـة وفرنسا وروسيا وانكلترا وتركيا أرسلت اليه من الدراهم مبلغاً وافراً لما سمعت بأعماله المدهشة وفي ليلة سقط السقف فقتل كل رفقائه الموجودين معه ولحسن الحظ كان الحاج ستافورس يدخن تركيلته في الخارج واستولى بالوراثة على جميع أموالهم التي جمعوها معه ولكن النحس دهمه فقد تم الصلح واعتمدت الدول المتحدة على أن تجعل اليونان مملكة مستقلة وأما هو فلم يكن يفهم ما يعنون بذلك فصاروا يتكلمون امامه عن الحكومة والعسكر النظامي وجميع الخراج والويركو وضحك جداً لما قيل له ان أرزاقه كانت تحت حكم قائمقاميه في ذلك المكان ولكن لما أتى اليه الملتزم وطلب منه العشر النظامي طرده خارجاً بعد ما سلبه دراهمه فأرسلت العساكر للقبض عليه ولكنه دخل الجبال ولم يكن يهتم بالبيوت حتى لو دخل بالصدفة بيتاً لصـعد الى سطحه وقت النوم ولما سمع رفاقه بذلك أتوا اليه أفواجاً أفواجاً فانهم كانوا متفرقين

في كل انحاء المملكة . والحكومة لعطتهم أراضي ليفلحوهـا فكانوا يتضجرون من هذا الشغل لانهم لم يكونوا يأكلون خبزهم الا بتعب شديد وفي سنة ١٨٤٠ طلب ان يتزوج وكان عمره وقتئذ اكثر من خمسين سنة فتزوج بابنة رجل غني جداً من أحسن عائلات لاكونيا وأصبح حليف أعظم رجال المملكة وامرأته بعدما ولدت له ابنة ماتت بالحمى فصارت عنايته كلها لابنته الصغيرة التي كان يحبها جداً حتى انه لما كان يلاعبها قال له رفقاؤه ان لا ينقصه غير الحليب ليرضعها فمحبته الزائدة لابنته هذه جعلته يهتم بأن يجمع لها مالاً وجهازاً ملوكياً فصار يضع الدراهم التي يسلبها في البنوكة لاجل كسب الربى ثم ساح في اكثر أوروبا ورأى حكوماتها وافتكر بأن يجعل حكومة اليونان مثلها واخرب عدة بلاد وقرايا لانها لم تستصوب عمله هـذا وأغنى غيرها لانها صادقت على فعله فصار الشعب اذا أراد تغيير وزارة يرسل فيخبر الحاج ستافروس فهذا يعلن للشعب بأن الجند غير منظم لأجل المحافظة وان الراحة العمومية لا تتم الا بتغيير الوزارة الفلانية فسياسته هذه أوجدت له عدة أصحاب آخرين حتى انه كاد يصبح قادراً على تغيير أي وزارة كانت . فمرة ما طلب الوزير الشهير راتيسس ان يجتمع بالحاج ستافروس عند أحد القناصل فأتى وحده وبدون سلاح وعند أكل الفاكهة قال راتيسس ان الرجل الذي يعصي الحكومة لا بد ان تكون آخرته وبالاً عليه ومع ذلك فانه عرض الامان على الحاج ستافروس وعلى رجاله وانه زيادةً على ذلك يعينه جنرالاً في العساكر ويعطيه عشرة آلاف فدان من الاراضي لخاصته ولكن العسكري القديم رفض ذلك قائلاً

— ربما كنت أقبل هذا لو عرض عليّ من مدة عشرين سنة ولكن بما اني صرت شيخاً وفي عمري هذا لا يقدر الانسان ان يغير معيشته لا اقدر ان اقبل ولو اعطيتني العساكر لاصير جنرالاً عليها فلربما اطلق الرصاص على الضباط لاني معتاد على ذلك فرح في سبيلك ودعني وشاني

فرايتسس لم يرد ان يظهر عليه الغلبة فصار يخبر اللص بافعاله المستهجنة وان كل

اعماله هذه شرور وخطايا فتبسم الحاج ستافروس واجابه

— سترى يا اخي يوم تكتب خطايانا قائمة من تكون اكبر ؟

— ولكن اعلم بانك لا تنجوا من الحكومة فسيأتي يوم تموت به مشنوقاً او مقتولاً باطلاق الرصاص

— الله كريم اجابة باللغة التركية فكلانا لا نعرف متى نموت وعلى كل حال فأني اعرف اعدائي من بينهم فاتحذر منهم واما انت فلا تعرف اعدائك فاستودعك الله.

وبعد ستة اشهر من تاريخ الحادثة المرقومه مات الوزير مذبوحاً بايدي اعدائه السياسيين واللص لا يزال حياً الى الآن

ثم قال كريستوديل بانه لا يقدر ان يتكلم عن كل اعمال الحاج ستافروس لان النهار لا يكفي لذلك فيذكر لنا اشهرها :

ولا اظن ان لصاً في الدنيا عمل نظير الحاج ستافروس فأنه سلب شحن وابور بخاري كان آتيا من القسطنطينية فبعد ما انزل بضاعته وركابه في كالاماكي على برزخ كورنتيه اتت ستة عربات واخذت المسافرين والشحن الى الطرف الثاني من البرزخ الى مينا لوتراكي حيث ينتظرهم مركب فصادفهم الحاج ستافروس في منتصف النهار على الطريق واخذ البضاعة والدراهم وذخاير الجنود الذين كانوا مرافقين العربات ليحرسوها فربح الحاج ستافروس بذلك النهار مايتين وخمسين الف فرنك ! (قال هذا كريستوديل وعلامات الحسد لائحة على وجهه) ولم يكن يوذي الناس الا رغماً عنه واذا عذب فلاحاً فلكي يعرف اين وضع داراهمه وبالاختصار انه كان يكرم كل الذين يتأمل ان يأخذ منهم الفدية ففي صيف سنة ١٨٥٤ نزل مع عصبته الى محل رجل تاجر فوجده يلعب بالورق مع احد القضاة فلعب مع القاضي على حريته فانغلب الحاج ستافروس فترك القاضي واخذ التاجر وابنه وابنته اسارى وترك امرأته لتدبر الفدية فيوم اسرهم هذا كان الرجل مريضاً والابنة محمومة والابن ضعيفاً واصفر اللون فبعد مدة شهرين من الزمان بعد دفع خمسين الف فرنك رجعوا كلهم بالصحة

الكاملة بسبب التمرين والهواء النقي الى كثير هذا المبلغ لمشتراة صحة جميع العائلة ؟

ولكني أقر بان صاحبنا هذا صارم جداً على الذين لا يدفعون عند حلول الوعدة فيقتل كل الاسارى اذا لم تصل فديتهم في الوقت المعين ومع عظم محبتي له ولعائلته لا أقدر ان اسامحه بقتل ابنتين توأمتين ظريفتين متشابهتين جداً حتى ان الذي يراهما يفرك عينيه مفتكراً انه يرى شخصاً واحداً ففي أحد الايام بينما كانتا ذاهبتين لتبعن شرانق صادفهن حاج ستافروس على الطريق وأخذهن الى الجبل وكتب الى امهما بان ترسل له عشرة الاف فرنك فديتهما وعين وقت الدفع الى آخر الشهر فالام التي كانت صاحبة أملاك لم يكن معها نقداً فرهنت ارزاقها وبعد عذاب طويل قدرت على جمع الدراهم ولكن كان قد فات آخر الشهر فحملت الدراهم على بغلة وذهبت ماشية الى الحاج ستافروس حتى وصلت بقرب شجرة كبيرة فلم تعد البغلة تتقدم فتقدمت الوالدة لترى ما السبب فرأت وآسفاه حشاشتي كبدها ملقاتين على قارعة الطريق ورأسيهما منفصلان عن الجسد فحملتهما على البغلة وأتت بهما الى البيت ولم تكن قادرة على البكاء لكنها جنت وماتت. واني عالم بان الحاج ستافروس ندم على ما فعل ولكن كان مفتكراً بان الارملة أغنى مما هي بالواقع وانها ما كانت تريد ان تدفع ومع ذلك ذبح هاتين الابنتين صار عبرة حتى لا يتجاسر أحد ان يتأخر عن الدفع

— أف له من نذل جبان : صرخ جيكامو بصوت كالرعد وضرب برجليه الارض فكاد يهدم البيت أود ان أرى هذا اللئيم فاجعله ان يدفع فدية نفسه عشرة الاف ضربة على ام رأسه

— وقال لو بستر والتبسم على فمه كجاري عادته اود ان اراه على بعد عشرين خطوة من رليثولثيري وانت يا خالي هاريس ؟

فهاريس كان يصفر اغنية حربية مهيجة جداً

— هل اقدر ان اصدق اذني ؟ قال المسيو مير ينه بصوته الرخيم هل ممكن وجود

حوادث كهذه في عصرنا هذا ؟ الا يوجد عندكم جنود ؟

— كيف لا ؟ اجابه كريستوديل فعندنا خمسون ضابطاً ومائة وخمسون جاويشاً والف ومائتان وخمسون عسكرياً ومائة وخمسون خيالاً فهذا احسن جيش في المملكة من بعد عسكر الحاج ستافروس

— والذي يدهشني بزيادة قلت بدوري ان ابنته تتركه يعمل هذه الافعال الفظيعة

— ليست معه

— اين هي اذاً ؟

— في المدرسة الداخلية

— في آثينا ؟

— لا اعلم بل جل ما اعرفه هو ان الذي يتزوجها يكون سعيداً

— بلى قال هاريس فان ابنته كالكرافت غنية ايضاً

— من هذا كالكرافت ؟

جلاد لوندرا

فعند هذا الكلام احمر لون ديمتري وقال

— العفو يا سيدي ولكن يوجد فرق عظيم ما بين جلاد ولص فمهنة الجلاد دنيئة ولكن مهنة اللص شريفة فحكومة آثينا تحافظ على جلادها في قلعتها لئلا يقتله الشعب ولكن لا احد يريد ضرر الحاج ستافروس حتى ان اشرف واحسن شبان البلد يتمنون ان يتخذوا ابنته زوجة

ففتح هاريس فاه ليجاوب ولكن طنين الجرس اوقفه فالتفتنا نحو الباب واذا بخادمة داخلة ومعها ابنة تبلغ من العمر الخامسة عشر الى السادسة عشر لابسة على آخر زي فلما رآها ديمتري نهض قائلا

فوتين !

— سادتي قال كريستوديل أوجوكم تغيير الحديث لان اخبار اللصوصية تزعج وترعب البنات

وقدم لنا كريستوديل فوتين وهي ابنة أحد رفقائه في العسكر الامير الاي جان فكانت تدعى اذاً افوتين جان حسب عادة اليونان حيث لا يوجد اسماء عيال الا من النادر فهذه الابنة كانت شنيعة المنظر نظير تسعة اعشار مدينة آثينا وليس بها شيء حسن غير شعرها واسنانها والباقي شنيع فقامتها كانت تزداد شناعة بالكويماج وقدماها المدورتان لم تخلقا لاجل ان تلبسا لستيكاً فرنساوياً بل لاجل البابوج ووجهها الذي كان يدل على انها يونانية كان مسطحاً كما لو جلست مرضعتها على وجهها بالغلط وزينة الرأس لا تليق لكل انسان فكانت مضحكة على رأس فوتين وفستانها الواسع كان يظهر حركاتها وقامتها الباردة ولكن جواهرها كانت ثمينة جداً وكانت كل ثيابها مرصعة بالالماس فلو تراها لتقول خادمة سمينة وقصيرة سرقت حلى معلمتها .

ولم يندهش واحدٌ منا من هذا اللبس لاننا نعرف عوائد المدينة فالقرويات يثقبن الدراهم الفضية ويجعلهن على رؤوسهن أيام الاحتفالات وبنات المدن يشترين بها حلى من عند التجار

ففوتين كانت تعرف قليلاً من الفرنساوي والانكليزي ولكن خجلها لم يسمح لها بان تتكلم بحرية وقد فهمت بعد ذلك بان عائلتها كانت تتكل علينا في تعليمها اللغات الاجنبية فأبوها اذ كان عارفاً بان كريستوديل يقبل عنده الاوروبائيين المتمدنين ترجاه ان يأتي بها اليه كل نهار أحد فهذا الشرط أعجب كريستوديل وخصوصاً ابنه ديمتري الذي كان لا يحول نظره عن الابنة التي لم تكن تلحظ ذلك

وكنا اعتمدنا ان نذهب كلنا الى الموسيقى وهو حقل يذهب اليه الشعب كل نهار أحد ليرى الرقص ويسمع الانغام فالفقراء يذهبون مشاة والاغنياء بالعربات والشبان على الخيل وعند ما ينتهي الرقص كان يرجع كل انسان الى بيته والغبار

على ثيابه وهو يقول والفرح ظاهر على وجهه

— قد انبسطت اليوم !

ولكن لسوء الحظ نزل المطر مدرارًا والزم الجميع البقاء في البيت ولقضاء الوقت أعطت ماروﻻ كل منا قبضة من الملبّس البلدي لاجل اللعب به وذلك بان كل من استطاع ان يجمع تسع ورقات من الشدة من لون واحد فله من كل شخص ثلاث حبات ولم يكن أحد مهتماً بهذا اللعب غير جيكامو فانه كسب اكثر الملبس واكل سبعاً أو ثماني حفنات منه

ومن كوني لم اهتم باللعب كنت الاحظ ما يحدث بجانبي فهاريس الذي كان ماسكاً ورقهُ كرجل غير مشغول البال كان يتثآب من وقت الى آخر ويردد اغنية اميركية مهيجة فكأنه كان يفتكر بحديث كريستوديل وكان يجذب فوتين اليه بقوة غير منظورة وكان يتأمل على كل حال ليس بالحب وفوتين أيضاً لم تفتكر به لان قلب اليونانيات عديم التأثير ولكنها كانت تنظر الى هاريس كما تنظر قنبرة الى مرآة موضوعة بقربها وما كانت تعرف شيئاً عنه لا اسمه ولا بلده ولا غناه ولكن كانت تراه جميلاً وهذا يكفي فان اليونانيين القدماء كانوا يعبدون الجمال وهو الاله الوحيد الذي كانت كل اليونان تعبده وفوتين كانت تنظر الى هاريس باعين مفتحة لكي يدخلها الغرام بكل سهولة متبعة في ذلك اغنية بلادها وهي

العشق ضيف والفؤاد محله فاذا أتى فمن العيون المدخل

فلم ينقطع المطر عن السقوط ولا ديمتري عن النظر خفية الى الابنة ولا الابنة عن النظر الى هاريس ولا جيكامو عن اكل الملبس ولا ميرينه من التكلم عن قصة تاريخية الى لو بستر الذي لم يكن يصغي اليه وعند الساعة الثامنة اعدت ماروﻻ المائدة وجلست فوتين بيني وبين ديمتري فتكلمت قليلاً ولم تأكل شيئاً وعند اكل الفاكهة لما اخبرتها الخادمة بان قد آن وقت الانصراف سألتني همساً :

— هل المسيو هاريس أعزب ؟

فلكي اتعبها قليلاً اجبتها بانه ستزوج الملكة فينيسيا الارملة

— صحيح ؟ وكم سنة عمرها ؟

عمرها من عمر الارض ولا تموت الا حتى يفنى العالم

— لا تهزأ بي يا سيدي فانني لا افهم تهكم أهل اوروبا فارجوك قل لي الصحيح

— قد تزوج البحر ياسيدة وهو ربان البارجة الاميركانية (ذى فانسي)

فشكرتني بفرح عظيم حتى خيل لي ان شناعتها انكسفت ورأيتها جميلة على الاقل نحو ثانية من الزمان

الفصل الخامس

ماري آن

الدروس التي تعلمتها جعلت فيَّ ميلاً شديداً الى معرفة كل شيء أو بالحري الفضولية فكنت اعشق العلم واعبده واجول في العالم كانسان في معرض ونظارتي في يدي بها الاحظ واتمعن في أعمال الآخرين نظير مسائل تستحق الملاحظة ولكن ليس بحسد أو بشفقة فما كنت أحسد زوجين متحابين اكثر من شجرتين على شاطيء النهر ولا كنت أحزن لقلب عاشق هجرته حبيبته اكثر من حزني على قرنفلة يبست من قلة الماء فعشق فوتين لجان هاريس يحرك الشفقة في قلب كل انسان ما عداني فانها كانت تحبه محبة اكيدة ولكنها كانت جبانة كثيراً فكان من المستحيل انها تتركه يلحظ حبها له وجان هاريس اذ كان لا يهتم بامور كهذه كان لا يقدر ان يطلع على حبها لوحده وعلى فرض انه عرف ذلك فماذا يؤمل من ابنة يونانية شنيعة للغاية

فقضت فوتين أربع آحاد معه وكانت تنظر اليه من الصباح الى المساء بأعين نواعس ولم تكن تتجاسر ان تفتح فاها بحضوره وهاريس كان يصفر أو يرتل أغاني أميركية وديمتري كان يهدر مثل كلب احس بالالم وكنت الاحظ كل هذه الامور

متبسماً كرجل ينظر الى مريض لم يذق مرضه . وفي تلك المدة حرر لي والدي مكتوباً يخبرني به ان أشغاله متأخرة لقلة المسافرين وان الجيران هاجروا من الضيق والفاقة واني اذا كنت قد وجدت اميرة مسكوبية فأتزوجها بدون تأخير فأجبته بأني لم أجد أحداً غير ابنة امير الاي يوناني وقد عشقت ولكن شخصاً غيري واني قادر ان أصير بكل سهولة كاتم أسرارها ولكن من المستحيل ان اصير زوجها وان صحتي جيدة و نباتاتي تقدمت وأني وان كنت الى الآن لم أتعد في عملي حدود المدينة فعما قليل أتمكن من زيارة كل ضواحيها لان الراحة العمومية انتشرت وكل الجرائد تخبر عن انكسار وهرب الحاج ستافروس بعد معركة هائلة بينه وبين الجنود المظفرة واني بعد شهر أرجع الى المانيا حيث أقلدُ منصباً يقوم بأود عائلتنا .

الفصل السادس

ونهار الاحد ٢٨ نيسان قرأنا في احدى الجرائد عن هرب ملك الجبال فاللائحة الرسمية تعلن بأن قد قتل من عسكره عشرون رجلاً وان الجنود طردته الى مستنقعات ماراتون فهذه الحوادث سرت الاجانب الذين في آتينا ولكنها كدرت الوطنيين عموماً وكريستوديل خصوصاً وابنة الامير الاي صارت تبكي لما سمعت هذه الحادثة وهاريس الذي قرأ لنا الصحيفة كان ضاحكاً مسروراً فابتدأت بالخروج الى الفلا وفي صباح ٣٠ نيسان أيقظني ديمتري عند الساعة الرابعة أفرنجية وذهب ليأخذ بعض أوامر من عائلة انكليزية أتت مؤخراً واستأجرت محلاً في لوكندة الاجانب .

فوضعت علبتي على ظهري ومسكت عصاي بيدي ونزلت نحو شارع هرميس ومن الباليكرس ذهبت الى شارع عيول حيث رأيت عسكر المملكة في الخيام ووصلت الى منتزه باتيسيا حيث ظهر لي في الافق رؤوس جبال البارنيس محاطة بالغيوم وهناك كان مرادي فمشيت حول جنائن البرنس سوتز ودخلت كروم او

بالحري احراش الزيتون ومنها دخلت حقلاً من الشعير حيث خيل اليونان الضخام تأكل من العشب الاخضر الذي ودعتهُ حين اتيان الشتاء فاليمام كان يتطاير من جهة الى أخرى من مجرد سمعه وقع أقدامي والقنبر كان يصعد في الجو مردداً أغنيته بصوته المطرب ومن وقتٍ الى آخر كنت أرى سلحفاة تنتقل وبيتها على ظهرها من جانب الطريق الى الآخر فكنت أقلبها على ظهرها تاركاً اياها وشأنها و بعد مسير ساعتين دخلت في الصحراء حيث اختفت آثار الزراعة فلا يصادف الانسان هناك الا بعض أعشاب ذابلة وصفراء وكثيراً من البصل البري وكانت الشمس وقتئذٍ تخرج من مقرها فصرت أرى عن بعدٍ الصنوبر على جبال البارنيس واني وانْ كنت سائراً في طريق لا أعرفه توجهت نحو بيوت متفرقة عرفتها بأنها قرية كاستيا ولكن لم تمض برهة من الزمان الا وتحولت الطريق الى ساقية حفرتها الامطار من عهد نوح أو أقدم فافتكرت لا بل تأكدت بأن الساقية هي الطريق لاني أعرف اليونانيين فانهم يستغنون عن حفر طريق اذا وفر المطر عنهم هذا الشغل لان في هذه البلاد مجاري المياه العظيمة طرق عظيمة والسواقي طرق صغيرة ومتوسطة فالعواصف اذاً كبار المهندسين والمطر المهندس المتوسط أوالقوندقتور.

فدخلت اذاً الساقية ولكن بعد مدة من الزمان لم اعد ادري من أي جهة أمشي لكثرت الدورات واللفتات فكان من اللازم لمعرفة الجهة ان أصعد الى أحد جانبي الطريق ولكنه كان منتصباً عمودياً حتى كان من المستحيل الصعود عليه خصوصاً لاني كنت متعباً جداً وجائعاً فجلست على بلاطةٍ مربعةٍ ووضعت زادي امامي وشرعت اكل قائلاً لذاتي

— اذا كنت على طريقٍ فلا بد من أن يمر أحد فاستخبر منهُ .

وحالما قصدت ان اتمدد كما هي العادة عند الانسان والحيوان بعد الاكل سمعت وقع أقدام دوابٍ فوضعت أذني على الارض وعرفت بأن أشخاصاً آتين من ورائي فوضعت علبتي على ظهري واستعددت لكي أتبعهم اذا كانوا ذاهبين نحو

جبـال البارنيس .

ومع ان المرء الذي يذهب الى عمله لا يهتم بلباسه ولكن حين يرى امرأتين ولو كانتا أعمر من حمامة سفينة نوح لا بد من أن يلقي النظر على ثيابه المغبرة فقبلما ميزت هيئة هاتين الامرأتين من تحت برقعيهما الازرقين نظرت الى ثيـابي وسررت أذهى ذات الثياب التي تراني لابسها الآن وكانت اذ ذاك جديدة واما برنيطتي فكانت رمادية اللون لكي لا تؤثر بها غبار الارض فرفعت برنيطتي للسلام عند مرور هاتين السيدتين ولكنهما لم تهتمان بسلامي فمددت يدي نحو ديمتري الذي أخبرني ببعض كلمات كلما اريد ان افهمه .

— هل أنا على طريق البارنيس ؟

— نعم ونحن ذاهبون اليه

— أأقدر ان ارافقكم ؟

— لمَ لا

— من هاتان السيدتان ؟

— انكليزيتان والميلورد باقٍ في اللوكندة

— ما مهنتهم ؟

— أصحاب بنوكه في لوندرا فالكبيرة هي ما دام سيمون من محل بارلي وشركاه والميلورد أخوها وهذه ابنتها

— جميلة ؟

— حسب الذوق فأنا أفضل فوتين عليها

— وهل تذهبون الى قلعة فيله ؟

— نعم فانهما استأجرتاني مدة اسبوع كل يوم عشرة فرنكات مع اكلي وانا الذي اخذهما الى المنتزهات وقد ابتدأت بهذه لعلمي بمصادفتك بها ولكن يا ترى ما حل بهما ؟

فالمدام اذ تضجرت لكوني الهيت خادمها عنها اركضت حصانها والحصان الاخر تبعه ولو بقينا بضع دقائق أخرى لصرنا بعيدين جداً عنهما فديمتري ركض وتبعهما وسمعت مادام سيمون تقول له بالانكليزية

— من هو هذا اليوناني ؟

— هو الماني يا سيدتي

— آه وما يعمل ؟

— يفتش على الاعشاب

— اذاً هو بائع ادوية ؟

— لا يا سيدتي بل هو عالم بالنبات

— آه وهل يعرف الانكليزية ؟

— يعرفها جيدا

— آه ولكن لا تبعد عني فاني انكليزية واريد ان أخدم جيداً ولم استأجرك لاجل محادثة اصحابك

وقد دل حديثها على اني وجدت نعمة في عينيها ومع ذلك لم تكلمني وأخذت أسير على بعد بضع خطوات من القوم وديمتري لم يعد يتجاسر ان يتكلم معي بل كان يمشي أمام الجميع كاسير الا انه اشار اليَّ بعض اشارات فهمت منها مراده وهو ان هاتين الانكليزيتين متكبرتان فمس سيمون لم تلتفت لكي اقدر ان اعرف اذا كانت اقبح منظراً من فوتين كما ادعى ديمتري فكل ما عرفته هو انها طويلة القامة عريضة الاكتاف لا سمينة ولا نحيفة والقليل الذي كان يبان لي من عنقها ذكرني باعناق الحمام البيض متي رأيتها في جنينة العلوم في هامبورغ

ولما التفتت والدتها لتكلمها اسرعت في المشي أملاً باستماع صوتها لانني كما اعلمتك كثير الفضول فوصلت لما ابتدأت المحادثة الآتية :

— ماري آن

— نعم يا أمي

— اني جائعة

— صحيح ؟

— نعم

— وانا متعبة

— صحيح ؟

— نعم

وهل تفتكر بأن هاته المحادثة الانكليزية جعلتني اتبسم ؟ كلا يا سيدي فصوت ماري آن لا أعلم من اين دخل اليَّ بل جل ما أعلم هو اني حالما سمعت صوتها شعرت بلذةٍ داخلية لم أشعر بها قبلاً ولم أسمع صوتاً كهذا لطيفاً رخيماً عذباً فصوت وقع الدنانير في جيب أبي ما كان يلذ لي بقدر ما لذ لي صوتها ولكني افتكرت بان الطيور الرخيمة الصوت قبيحة المنظر فصرت أخاف وأتمنى ان أراها .

وكان فكر ديمتري ان نأكل في خان كاليفيا وهو خان من خشب به من لوازم الاكل العرق والخبز الاسود والبيض ولكن لسوء الطالع كان الخان خاوياً خالياً من السكان والباب مقفل فعند استماع هذا الخبر صرخت ما دام سيمون وصارت تلعن ديمتري والما التفتت اليه نظرت وجهها طويلاً كحد السكين وثلاثين سناً كأخشاب للمحاصرة .

— أنا انكليزية ويجب ان اكل حين أريد

— يا سيدتي أجاب ديمتري بنغمة تحرك الشفقة ستأكلين في قرية كاستيا بعد نصف ساعة .

فتأملت في قباحة منظر مادام سيمون وقلت ضع الجرة على فمها تطلع البنت لامها .

ان الطريق الموصل بين الخان والقريةٍ ردي للغاية وهي عبارة عن سلم ضيقة بين صخر عمودي مرتفع وبين وهدة تهول الماعز البري فقبلما تدخل ما دام سيمون

في هذا الطريق الشيطاني سألت عن طريق آخر

— أنا انكليزية ولم أخلق لأتدحرج في الأودية

فابتدأ ديمتري يمدح الطريق ويقول انه يوجد اكثر من مائة طريق أصعب منه مسلكاً

— بالاقل أجابت ما دام سيمون امسك لجام فرسي ولكن مايحل بابنتي ؟ امسك حصان ابنتي .... ولكن لا ينبغي أيضاً ان اكسر عنقي ... ألا تقدر ان تمسك عنان الجوادين معاً ؟ فبالحقيقة ان هذا الطريق وعرٌ ويستحق اللعنة فانه خلق لليونان وليس للانكليز أما صحيح يا خواجه ؟ قالت هذا والتفتت اليَّ فعرفت بها اذاً وان يكن بطريقةٍ غير نظاميه فانحنيت بكل أدب واجبتها بالانكليزية

— ليس الطريق رديا كما تتوهمين يا سيدتي فخيلكم قادرة وعندكم قائدان اذا كنت تسمحين بذلك ديمتري لاجلك وأنا لاجل السيدة ابنتك وبدون انتظار الجواب اسرعت ومسكت بلجام حصان ماري آن والتفت اليها وبالصدفة انقشع رداؤها السماوي اللون عن وجهها فنظرت اجمل صورة أثرت في عقل وقلب عالم المعاني

مثول الشاعر الصيني الشهير يزعم بأن في قلب الانسان كيس من البيض كل واحدةٍ منها تحتوي على العشق ويكفي لفقشها نظر امرأة ومع علمي بان هذا القول هو عين الغلط ومضاد بكل الوجوه لعلم التشريح شعرت بهيجان في قلبي حالما نظرت مس سيمون وكادت عظامي تتفكك ولكن بدون ضرر وحالاً أسرع الدم في دورته حتى صرت أشعر بنبضي يدق بقوة مدهشة . وحباً براحتك أسأله تعالى ان لا يريك مثل عينيها فلم تكونا كبيرتين ولونهما لا أزرق ولا اسود ولكن عمل مخصوصاً لاجلهما فاذا ذهبت الى الحدادين عند منتصف الليل ورأيت الشرار يتطاير من الحديد المحمى الى الحمره يكون تقريباً لون نظرهما ومن جهة حسنهما فمن المستحيل عليّ ان أقدر أشبههُ وجمالها وذكاءها ظاهران في عينيها كما لو في كتابٍ ولكن هذا الكتاب يعمي من يطيل النظر اليه . فلم تكن لي قدرة على الافتكار بأن ديمتري

رآها أقل حسناً من فوتين فبالواقع ان الحب مرض يعمي انظار المصاب به فأنا من كوني خالي الغرض وقلبي لا يؤثر به شيء أؤكد لك ان الدنيا لم تر امرأة تشابه ماري آن وأود من كل قلبي ان أريك صورتها كما هي مرسومة في ذهني لكنت وقتئذ ترى اهدابها الطويلة وحاجبيها المقوسين فوق عينيها وفمها الصغير وبياض اسنانها واذنيها الموردتين والشفافتين فقد لاحظت جمالها في كل عضو على حدة لانني فضولي كما تعلم والشيء الذي اثر بي على الخصوص نعومة بشرتها ولون خدودها ولو لم اكن عالماً بالطبيعه لكنت أشرت عليها بنزع ردائها الحريري الذي لربما باحتكاكه بجسمها أزال جماله وخدشه ومن كوني عالماً فلا أعجب الا بلون الصحة لون فرح الحياة فأول مرة نظرت بها ماري آن هممت ان اتقدم اليها وأمسك بيدها قائلاً

— بالواقع انك بديعة يا سيدتي

وأما ملامح وجهها فكانت غير متساوية فلو كلف فيدياس لتصويرها لامتنع من ذلك ولكن برادميركان يركع لها اذا سمحت له بتصويرها وكان لها نونة على خدها الشمالي فقط وهذا مما يضاد اصول الهندسة وانفها كان بسيطاً على الزي الفرنساوي ولكن كل هذا كان يزيد جمالها جمالاً فانها كانت اجمل من الرسوم اليونانية ولكن بغير هيئة فان الجمال يتغير حسب الوقت والشعوب والتمدن فالزهرة الهة الجمال منذ الفي سنة لا تعادل ابنة باريسية الآن في الجمال ولا تأخذ شهرة نظير تلك الامرأة التي أنفها صغير أو ملامحها غير متساوية فنساء هذه الايام خلقن لايقاظ العقل واحياء الشجاعة والذي نحبه فيهن ليس ملامحهن المتساوية ولكن احساساتهن اللطيفة والرقيقة واني وان اكن لست نقاشاً واذا كلفت ان انقش صنماً فانني أجعل انفه صغيراً وأنقش له نونة في خده الشمالي .

فقدت ماري آن الى قرية كاستيا والحديث الذي تداولته واياها على الطريق لم يعد له أثر في ذهني الا كمر السنونو في الهواء فصوتها كان رخيماً جداً حتى بالجهد كنت أصغي لكلامها فكنت كما لو وجدت في الاوبيرا حيث الموسيقى تمنع فهم

الكلام فمع كوني لا اتذكر ما قلتـاه ولكن تلك الحوادث لا تزول من فكري ويكفي أن أغمض عيني لأرى نفسي في ذلك الحال قائداً لماري آن بين الاحراش والجبال حيث تفوح الروائح البرية الشهيه وكانت ماري آن تستنشقهـا بكل فرح وعيناها تجولان من جهة الى أخرى فكأنها حورية صعدت بين الاحراش .

فقرية كاستيا كانت مقفرة مثل حان كاليفيا وبعد ما نزلنا عن الدواب قرب الكنيسة ذهب كل منا يقرع باباً ولكن لا حياة لمن تنادي فكل بيوت القرية مركبة من أربعة حيطان وسقف وثقبين الواحد شباك والآخر باب فصرنا نكسر الابواب وخلصنا بهذه الواسطة قطة كانت محبوسة في احدى المخادع ولكن كل هذا الضجيج لم يفدنا شيئاً فالقرية كانت مهجورة ففرغ صبر مادام سيمون وابتدأت تقول لديمتري

— انا انكليزية ولا أحد يقدر ان يضحك عليّ بدون قصاص فقد استأجرتك لاجل ان تنزهني في الجبال فاخذتني الى الاودية وأمرتك ان تأتيني بالزاد فامتني من الجوع فذهبنا الى الخان حيث كان من اللازم ان اتغدى فلم نجد أحداً وتبعتك الى هنا فلم تجد أحداً فهذا خارق العادة فقد سافرت الى سويسره وهي بلاد جبال أيضاً ومع ذلك لم يكن ينقصني شيء فساشتكي الى المحكمة و.....

وعبثاً كانت ماري آن تحاول ان تسكن غضب امها وهيجانها فديمتري اجاب بان من كون فلاحي القرية حطابين فمهنتهم تجبرهم ان يفارقوا بيوتهم وعلى كل حال فلا بد من بيت معد للنزول والطعام

— أي بيت ؟ سألت مدام سيمون

— الدير فعند رهبان الياتيليك أراضي واسعة بقرب قرية كاستيا وهم يربون النحل وعند الشيخ نبيذ وخبز وعسل ودجاج فيعطينا اذا طلبنا منه

— يكون خرج كالبقية

— لا يا سيدتي واذا خرج فلا يكون بعيداً

— اذهب ودبر بمعرفتك اما أنا فقد حلفت ان لا أركب ما لم اكل

— لا لزوم للركوب يا سيدتي فالمحل قريب فنربط الدواب هنا ونذهب مشاة

فماري آن لرغبتها ان ترى خلايا النحل اقنعت أمها بالذهاب وربط ديمتري الدابتين بوضع حجر كبير على كل لجام وابتدأنا نصعد في طريق اردأ من الذي اتينا منه وبعد ربع ساعة حصل لنا الحظ بان نرى وجهاً بشرياً وباباً مفتوحاً وننظر الشيخ والدير

فالدير كان مبنياً بالقرميد الاحمر بخمس قبب نظير جامع قرية وهو يسر الانسان من الخارج ولكنه قذر جداً من الداخل وبقرب الدير موضوع مئات من خلايا النحل فامبراطور هذه المملكة كان الشيخ وهو شاب ابن خمس وعشرين سنة مدور الوجه بشوش الهيئة فكل رهبان اليونان يلقبون بالشيوخ والعمر لا يقدم ولا يؤخر بذلك وكان لابساً مثل فلاح وانما طربوشه كان اسود ومن هـذه العلامة عرفه ديمتري

فحينما رآنا رفع يديه الى السماء واظهر اندهاشاً عظيماً فقالت مادام سيمون

— لِمَ يظهر كل هذا الاندهاش ؟ ألم ير بعد الانكليز ؟

فركض ديمتري وقبل يد الخوري وقال له باحترام وعدم تكلف

— باركني يا ابتاه ! واذبح دجاجتين وخذ ثمنها مضاعفاً

— ما أتيت تعمل هنا ياتعيس ؟ اجابه الراهب

تغدى

— ألم تر الخان مقفراً ؟

— بلى

— والقرية أيضاً ؟

— لو وجدت أحداً لما اتيت الى هنا

— فاذاً انت متفق معهم

— معهم ؟ مع من ؟

— اللصوص

— أيوجد لصوص في جبال البارنيس

— منذ أول البارحة

— واين هم ؟

— في كل مكان

فالتفت ديمتري وقال لنا بلهفة زائدة

— لا تقدر ان نضيع ولا دقيقة فاللصوص في الجبال هلموا الى الدواب !

— كيف نذهب من دون غدا ؟ اجابت مادام سيمون

— اكلكم الآن يضر بكم جداً هلموا سريعاً !

— هذه هي الخيانة بعينها فقد حلفت بانك تميتنا من الجوع والآن تقول لنا هو ذا اللصوص فانا لا اعتقد باللصوص لان كل الجرائد تعلن بانقطاع شأفتهم وعلى كل حال فانني انكليزية واذا تجاسر احد ان يمد يده ليلمس شعري .....

— فالتفتت ماري آن اليّ وسألتني اذا كنا في خطر الموت

— الموت ؟ كلا ولكن في خطر السرقة

— ما يهمني اجابت مادام سيمون فليأخذوا كل ما عليّ وليطعموني . وعرفت بعد ذلك بان مادام سيمون كانت مصابة بمرض عضال وكانت تشتري صحناً من العدس بكل ثروتها اذا كانت جائعة

فاخذها ديمتري وماري آن بيديها وجرّاها الى الطريق الذي اتينا منه واردت ان اساعدهما على ذلك واذ بصفير منخفض اوقفنا جميعاً فرفعت نظري واذا باربعة بواريد مصوبة نحونا وصرت صارخ باليونانية

— اجلسوا !

فلم أشعر الا وانا راكع على الارض ولكني تعزيت بانه لوجد اغامينون او

اشيل محلي لما رفض المكان الذي كلفوني الجلوس عليه و بعد هنيهة ظهرت اصحاب البواريد من الجفنة .

الفرق الواحد بين الشياطين واللصوص هو ان الشياطين اقل سواداً مما يتوهم الانسان واللصوص معفرون بالتراب والوحل اكثر مما يفتكر فالثمانية اشخاص الذين احاطوا بنا كانوا قذرين جداً حتى انني اردت ان اعطيهم دراهمي بالملاقط ولون طرابيشهم كان على الغالب أحمر لان الغسيل ذاته لا يقدر ان يرجع لها لونها الاصلي وكل صخور الارض مرقت من ثيابهم و بنطلوناتهم وسراويلهم جامعة وحولاً من كل الاراضي التي مروا بها وايديهم ووجههم وشواربهم كانت بلون الارض فكل حيوان يتلون حسب مسكنه فثعالب كرينلاندا بلون الثلج والاسود بلون الصحراء واللصوص بلون الطرق ولم يكن يتميز رئيس هذه العصبة عن البقية الا بثيابه وايديه فانها مغبرة اكثر من الكل فانحنى وصار يفحصنا عن قرب حتى شعرت بلمس شاربيه لخدودي وعند ما انتهى من النظر الينا قال لديمتري

— فرغ جيبك

فرمى ديمتري من جيبه سكيناً وكيس دخان وثلاثة غروش أي ستة عشر فرنكاً

— أهذا كل ما معك ؟ سأله اللص

— نعم

— فاذاً انت الخادم

— نعم

— خذ غرشاً لانه لا ينبغي ان ترجع الى المدينة بدون مصروف

— لا يا اخي يجب ان تعطيني غرشين لان لي حصانين في الاسفل وقد استأجرتهم من زيمبرمان و ينبغي ان ادفع له الاجرة

— قل له اننا أخذنا كل دراهمك

— ولكن اذا أصرّ ان ادفع له فماذا أعمل ؟

— أجبه أن أشكر ربك لرجوع دابتيك

— هو يعرف انكم لا تأخذون خيلاً لانها لا تفيدكم في الجبال

— كفى ! قل لي الآن من هذا الرجل الطويل والهزيل الذي يقربك ؟

— رجل المماني لا يفيدك شيئاً . أجبت اللص بكل خضوع

— أتعرف اليونانية ؟ حسن ! فرغ جيبك

فوضعت على الارض عشرين فرنكاً ودخاني وغليوني ومنديلي

— ما هذا سألني اللص

— منديل

— ولاي شيء ؟

— لاجل ان امخط فيه

لماذا قلت لي اذاً بانك فقير ؟ فلا تحمل المناديل الا السادة الاشراف . انزع هذه العلبة عن كتفك وافتحها

فعلبتي كانت تحتوى على بعض نباتات وكتاب وسكين وعلبة من الزرنيخ ووعاء لاجل الماء وأعطيت بقايا الغدا التي لم تزل في علبتي لمادام سيمون التي ابتدأت تأكل اللحم بشراهة فاندهلت جداً لما رأيت كل اللصوص يرسمون علامة الصليب ويقولون لبعضهم البعض

— يا للخطية ! يا للخطية ! ياللعار

وعلى الغالب لانه كان يومئذ يوم صيام

— أين ساعتك ؟ ضعها مع البقية

فوضعت ساعتي وكان بها جوهرة ثمينة ورثتها من عائلتي فصارت تتناقلها الايدى فافتكرت بان الاندهاش يمس طبع الانسان فطلبت من اللص ان يرجع لي علبتي فاشار عليّ بالسكوت فطلبت منه بعض دراهم لكي ارجع الى المدينة فاجابني وهو يضحك

– لا يلزمك دراهم

ولما انتهوا الى مادام سيمون صرخت بصوت تهديدي

– انا انكليزية والانكليز لا يسلبون فالذى تأخذونه اليوم مني يفيدكم قليلاً ويضربكم كثيرًا في المستقبل فانكلترا ستنتقم لنا منكم وتشنقكم جميعاً والآن اذا اردتم ان تأخذوا دراهمي فانني مستعدة لاعطيكم اياها ولكنها تحرق ايديكم فانها دراهم انكليزية

– ما تقول هذه السيدة ؟ سأل اللص

– تقول انها انكليزية . اجابه ديمتري

– احسن واكرم فالانكليز اغنياء قل لها ان تفرغ جيبها

فرمت مادام سيمون كيساً يحتوى على اثنتى عشر ليره وابقت معها ساعتها ومنديلها اذ كانا غير ظاهرين . وألقت ماري آن ولكن بلطف ساعتها وحجاباً كانت تحمله للوقاية من العين وكيساً من الجلد المسكوبي ففتح اللص الكيس وسحب منه علبة فضية وقنينة من الملح الانكليزي وعدة اقراص من النعنع ونيفاً ومائة فرنكاً

– الآن قالت الامرأة العديمة الصبر دعونا نذهب لسبيلنا فلم يبق معنا شيء

فباشارة تهديدية فهمنا ان الجلسة لم تنفض بعد وزعيم القوم تربع امام المال المسلوب ونادى الشيخ وعد امامه الدراهم واعطاه مبلغ خمسة واربعين فرنكاً فمادام سيمون قالت لي اذ ذاك بصوت منخفض

– ديمتري والراهب سلمانا انظر كيف يقتسمون الدراهم

– لا يا سيدتي فديمتري لم يأخذ الا حسنة على ما سلب بسببه وهي عادة جارية في كل البلاد

– ولكن الراهب ؟

– الراهب اخذ عشر الغنيمة على الغالب عادة عند اليونان فلا تحقدي عليه لانه لو اراد تسليمنا لسلمنا حالما كنا عنده في الدير

وبينما نحن في هذا الكلام اتى ديمتري وودعنا واراد الذهاب فاجبته

انتظرني فسنرجع سوية

فامال رأسه نحو اليمين والشمال بحزن وأجاب باللغة الانكليزية لنفهمه السيدتان

انكم اسارى بعد عدة أيام ولا ترون آتينا ما لم تدفعوا فديتكم واني ذاهب لاخبر الميلورد بذلك فهل تأمراني بشيء يا سيدتي

– قل لاخي الميلورد صرخت مادام سيمون ان يذهب الى السفارة ومن هناك الى البيرة حيث يخبر الاميرال ويكتب للورد بالمرستون فيخلصونا من هنا اما بالسلاح أو بالسياسة ولكن اخبره ان لا يدفع ولا فلساً واحداً لاجل تخليصنا .

اما انا فاجبت ديمتري بكل هدو قائلاً

اخبر اصحابي اين تركتني وان لزم بعض دراهم لمشتراي فانهم يجدونها على الغالب ولكن سل الآن هؤلاء اللصوص عن مقدار فديتي

– مستحيل يا عزيزى هرمان لان ليس هم الذين يعينون المبلغ

ومن اذاً ؟

– زعيمهم ملك الجبال

الفصل السابع

الحاج استافروس

وبعد ذهاب ديمتري الى آتينا صعد الراهب الى ديره ودخلنا في طريق يقودنا الى معسكر ملك الجبال فمادام سيمون اذ رفضت ان تنقل قدميها تهددها اللصوص بحملها لكنها اعلنت بانها لا تدع احداً يلمسها ولكن مس سيمون سهلت الامور وحركت بأنها احساسات لطيفة قائلة لها بانها ستجد المائدة موضوعة عند الحاج استافروس وستتغدى واياه . وكانت ماري آن مندهشة من غير خوف لان اللصوص

الذين اوقفونا اظهروا كثيرًا من الرقة والاحترام فانهم لم يفتشوا احدًا وعوضًا عن ان يسلبونا امتعتنا بأيديهم كلفونا ان نعطيهم اياها فكنا بعيدين اذًا عن قطاعي طرق اسبانيا وايتاليا الذين يقطعون الاصبع ليأخذوا خاتمًا ويقطعون الاذن ليأخذوا لؤلؤة او الماسة فكان همنا الوحيد دفع الفدية ولربما كنا نخلص بدونها لانه كيف نقدر ان نظن بان الحاج استافروس قادر على توقيفنا وهو ليس بعيدًا خمسة أميال عن العاصمة وعن المعسكر اليوناني وعن بارجة انكليزية هكذا كانت تقول ماري آن واما انا فافتكرت حالاً بنتي مسترا وابتدأت لواعج الحزن والاسف تلعب بي وكنت خائفًا من ان عناد مادام سيمون يؤدي بابنتها الى الهلاك وكنت اريد ان اخبرها بحالتها لاحذرها ولكنا كنا نمشي في طريق ضيق بين وهدة وصخرة عمودية مفترقين عن بعضنا البعض بين اللصوص الذين لم يظهروا ولا علامة من الفرح والانتصار كما لو كانوا في جنازة يدخنون سيكاراتهم الثخينة بكل سكوت كأن على رؤوسهم الطير حتى لم يكن مسموعًا غير صوت وقع الاقدام وترتيل بعض اعداد من المزامير من حين الى آخر بصوت ونغمة كئيبة وحزينة . وعند الساعة الحادية عشر عرفنا من نباح الكلاب اننا قرب المعسكر وبعد هنيهة هجم علينا اثنا عشر كلبًا كالعجول شعرها مسترسل كصوف الغنم مكشرة عن انيابها القواطع فتلقتها اللصوص بالحجارة وبعد معركة اقامت مقدار ربع ساعة تصالح الفريقان . فهؤلاء الكلاب مقدمة حرس ملك الجبال وكانت أقوياء جدًا حتى انها في بعض الاحيان كانت تفترس احد الرعاة أو أحد المسافرين التائهين

فمعسكر ملك الجبال عبارة عن سفح تبلغ مساحته من السبعمائة الى الثمانمائة متر ولم يكن منصوبًا به ولا خيمة واحدة لانهم كانوا ينامون في الفلا بدون أغطية ولم اجد هناك اسلابًا موضوعة ولا كنوزًا مجموعة ولا شيئًا مما يؤمل الانسان ان يراه عند رئيس قطاعي الطرق لان حاج استافروس كان يبيع الغنيمة ويفرقها على كل حسب حصته ليعمل بها حسب ارادته وذوقه فمنهم من كان يضعها عند

الصيارفة ومنهم من كان يشتري بها اسهم سكك حديدية ومنهم من كان يشتري بها اراضي ولكن لم يكن أحد ينفقها جزافًا

وحال وصولنا الى المعسكر كان خمسة وعشرون نفرًا يأكلون فركضوا الينا وخبزهم وجبنهم في ايديهم فاكل اللصوص هو زيت وخبز ونبيذ وجبن وزيتون واذا لم يكن يوم صيام فيزاد على ذلك اللحم وكان مأذونًا لذوي الشراهة منهم ان ياكلوا سلاطة ويحضرونها من نبات الجبل ولم يكونوا يشعلون النار الا في النادر فياكلون اللحم نيًا وقد لاحظت بان كل الذين اجتمعوا حولنا كانوا يراعون شريعة الصيام بكل دقة وكان يومئذٍ ضحية عيد الصمود وهو يوم صيام فلم يكن يوجد بينهم واحد يأكل لحمًا مع ان ليس بينهم الا من قتل رجلاً أو اكثر فتوقيف وسلب الانكليزيتين هفوة لا تذكر بالنسبة الى خطية مادام سيمون التي اكلت فخذ لحم نهار الاربعاء

وبعد وصول اللصوص الى رفقائهم وضعوا امامهم الغنيمة وساعتي الفضية فازت بالشهرة وحصلت بسببها على احترام الجميع وكانوا ينظرون اليّ بهيئة فهمت منها ان من يكون معه ساعة كهذه لا يكون أقل من ميلورد ففضولية اللصوص لم تكن وقحة ولا أحد منهم تجاسر ان يمد يده الينا فكانوا عالمين باننا سندفع لهم آجلا أو عاجلاً مبلغًا وافرًا من النقود الذهبية وكان موجودًا بينهم من لاول مرة نظر الثياب الاوروبية فكانوا يدورون حولنا مثلما كانت الهنود تدور حول كريستوف كولومبس ورفقاءه حين اكتشافه اميركا

وكانوا يمسكون ثوبي بعنف ليعلموا من أي قماش نسج ولولا الاحترام لطلبوا ان انزع لهم كل ثيابي ليفحصوها ولو سمحت لهم لكسروا اعضائي ليعرفوا كيف يتركب جسم ميلورد . أما مادام سيمون ففقدت صبرها على هؤلاء القوم الذين فحصوها بهذا المقدار عن قرب وهي تكاد تموت من الجوع ولا أحد يطعمها . ومس سيمون سقطت اعياء فمشي ستة ساعات والجوع والتعب والتعجب والخوف اثرت بها جدًا

لانها سيدة تربت على الدلال لا تمشي الا على السجادات العجمية أو على العشب الاخضر في مماشي جنينتها فحذاؤها تمزق والعليق اكل اذيال فسطانها فقد كانت في الصباح في قصر أحد الوزراء تشرب الشاي فلم تشعر الا وقد سقطت بين قوم من الوحوش ولم تكن تقدر ان تتعزى بقولها هذا حلم لانها لم تكن نائمة ولا مضطجعة ولا جالسة بل منتصبة على قدميها

واتى جيش آخر جرار وجعل مركزنا حرجاً جداً وهـذا الجيش ليس بقطاعي الطرق بل أردأ وأحسن فاليونانيون يحملون عليهم كل انواع الحشرات لتسليهم وتبقى معهم ليلاً ونهاراً فتزيد حركة دمهم بوثباتها ونهشاتها فبراغيث اللصوص اقوى واكبر واشجع من براغيث المدن لان مناخ البرية يوافقها جداً ومن كوني المانياً وجلدي الين من جلد اللصوص علمت بان ستحدث عليَّ مهاجمة عظيمة فاني حالاً شعرت بانهـا استولت على قدمي وكانت هذه علامة شهر الحرب ولما هجم عليَّ الجناح الايمن مددت يدي وبينا انا ادافع عن نفسي كان الجناح الايسر قد استولى على كل الحصون وملك اعالي المخاذي فقد غلبت واصبح التسليم اوفق من المدافعه فلو كنت وحدي وفي محل منفرد لداومت الحرب ولكن ماري آن كانت امامي حمراء كالكرز ومتضايقة من اعداء سرية نظيري فما كنت اتجاسر لا ان اتشكى ولا ان ادافع عن ذاتي فلكي اخلص من هذا الالم المبرح طلبت ان يأخذونا عند الملك فهذه الكلمة ذكرت اللصوص بواجباتهم وسألوا اين موجود الحاج استافروس فقيل لهم في مكتبه

فاذاً اقدر الآن ان اجلس على كرسي

قالت هذا مادام سيمون واخذت بيدي واعطت يدها الاخرى الى ابنتها ومشينا نحو مكتب الملك ووصلنا اليه قبل مرور خمس دقائق . فمكتب الملك يشبه المكاتب كما معسكره يشبه المعسكر فما كان فيه كرسي ولا مائدة ولا اقل أثاث والحاج استافروس كان جالساً على سجادة مربعة في ظل شجرة من الصنوبر وكان حوله اربعة من كاتمي اسراره وخادمين وولد في الخامسة أو السادسة عشر من عمره منهمكاً

دائماً بتشعيل وتنظيف الشبوق لمعلمه وكان حاملاً كيساً من الدخان مزركشاً بالذهب ومحلى بالحجارة الكريمة وملقطاً فضياً ليمسك به النار وخادم آخر كان يغلي دائماً القهوة ويحضر الماء البارد والشرابات لترطيب فم الملك والكتاب كانوا جالسين على الصخرة يكتبون واضعين الورق على ركبهم باقلام من القصب وكان في زنار كل منهم علبة اسطوانية من النحاس بها الاقلام والسكين والدواة

والملك كان شيخاً موقراً مهزولاً ومستقيم القامة أبيض الشاربين طويلهما وكان يحلق شعر وجهه وشعر رأسه أيضاً الا خصلة منه فكانت تبقى دائماً مدلاة من تحت طربوشه طويل الوجه مجعده فمن هيئته يعرف الانسان انه رزين متأمل ومن عينيه الزرقاويتين والصغيرتين وذقنه المربعة يستدل على انه عظيم الارادة وقد نظرت عدة اشخاص من الذين بلغوا السبعين من العمر وقد شرحت واحداً منهم ولكني لا اتذكر باني وجدت أحداً كانت شيخوخته أشب من شيخوخة الحاج استافروس وكان لابساً على زي جزائر اليونان فطربوشه الاحمر ملتوٍ عن جبينه وصدرته الجوخية كانت معلقة بخيطان من حرير وسرواله العظيم الازرق كان يقتضي له عشرين متراً من النسيج وجزمته كانت من الجلد المسكوبي فالشيء الوحيد الثمين كان زناره المطرز والمزركش فانه يساوي من الثلاث الى الاربعة الاف فرنك وكان واضعاً به كيساً من الكشمير المزركش وخنجراً دمشقياً بجراب من الفضة وطبنجة مذهبة كبيرة

وكان لا يحرك غير شفته واطراف اصابعه فيحرك شفته ليملي على الكتاب ويحرك اصابعه ليلعب بمسبحة من العنبر الابيض ليس لاجل الصلاة بل لاجل التسلية فرفع نظره حين اقتربنا وباقل من لمحة عين عرف سبب مجيئنا وقال لنا بنغمة بسيطة لا تدل على الهزل

— أهلاً وسهلاً تفضلوا واجلسوا

— يا مسيو صرخت مادام سيمون انا انكليزية و.....

فقطع حديثها وقال لها باليونانية

— اني مشغول الآن

فمادام سيمون التي لا تعرف غير الانكليزية فهمت كلامه بدون ترجمان وذلك من هيئته الناطقة فجلسنا اذاً على التراب وحولنا اللصوص ومن كون الملك ليس عنده اسرار ابتدأ ان يملي مكاتيبه العائلية والتجارية بحضورنا فرئيس العصبة التي اوقفتنا تقدم اليه وأسرّه بعض كلمات فاجابه بصوت عال

— ما يهمني ان سمع الميلورد أو لم يسمع فاني لست أفعل المنكر ! فاذهب وانت يا سبير واكتب الى ابنتي

و بعد ما تمخط باصابعه وصار يملي بصوت جهير ولكن لطيف :

يا عيوني و يا روحي

قد أخبرتني رئيسة المدرسة بأن وجع رأسك قد زال وان صحتك قد تحسنت فأحمد الله على ذلك ولكن ما دام ماڤروى تقول بأنك صرت طايشة من حين بدأ شهر نيسان وانك في أغلب الاحيان تتكائين على كتابك وعينيك شاخصة في الفضاء تفتكر كما لو كنت تفتكرين بشيء آخر فتكدرت من هذا الخبر ولا أعلم ماذا ينبغي ان اقول لك فاجتهدي مثلي لتصيري أهلاً بان تدعين ابنتي فانني اضحى كل شيء لتهذيبك وتثقيف عقلك وانك تعلمين باني لم امنع عنك شيئاً عما تطلبينه ولكني أريد أيضاً بان ضحاياي هذه تعوض بتهذيبك واجتهادك . ان الكتب والسوار التي طلبتها لاجلك من انكلترا وصلت وخذيها من الجمرك بواسطة أحد أصحابنا من شارع هرميس واذا كانت البيانو التي عندك لا تعجبك فسأحضر لك بيانو من بلايل فسأخرب قريتين حين حلول الموسم والله يعلم اذا لم أجد بهما ثمن بيانو ظريفة واني أعلم بأن الموسيقى تهمك ولكن ينبغي عليك قبل كل شيء ان تهتمي بتعلم اللغات الاجنبية فاستعملي أيام الآحاد كما أخبرتك قبلاً وتكلمي دائماً بالانكليزية والفرنساوية وخصوصاً الالمانية لانك لم تخلقي لتتزوجي في هذه البلاد فخير لي ان أراك مينة من ان اراك قرينة رجل يوناني مهما تكن رتبته فمن كونك ابنة ملك

فلا تأخذين بعلاً الا من نسل الملوك ويوجد في المانيا عدة أمراء يتمنون بسبب شهرتي وغناي ان يطلبوا يدك بكل رغبة فاستعجلي اذاً وتعلمي لغتهم واخبريني في تحريرك بأنك تقدمت تقدماً يستحق الذكر والاعتبار هذا ما لزم فاقبلك عن بعد وأهديك تحياتي ودعاي الابوي

الحاج

استافروس

فاقتربت مني ما دام سيمون وسألتني

- هل يكتب الحكم علينا ؟

— لا يا سيدتي فانه يكتب لابنته

— أبخصوص اسرنا ؟

— كلا بخصوص بيانو وكتب وسوار ولغات

— هل يطول الحال من دون ان نأكل ؟

— لا فهو ذا الخادم يحضر المرطبات

فأحضر لنا القهوجي ثلاثة فناجين من القهوة وعلبة من راحة الحلقوم ووعاء من المربى فما دام سيمون وابنتها رفضتا القهوة لانها كانت مهيأة على التركية أما أنا فشربتها بكل لذة ولم نأكل من المربى لعدم وجود غير ملعقة واحدة ولكن علبة راحة الحلقوم أعجبت الجميع وصرنا نأكل منها بشراهة وافترسناها عن آخرها بينما كان الملك يملي المكتوب الآتي .

الى الخواجات بارلي وشركاه ٣١ كافنديس سكوبر في لوندرا

أخذت مشرفتكم المؤرخة في ١٧ نيسان وفهمت منها بان لا يزال لي عندكم اثنان وعشرون الفاً وسبعمائه وخمسون ليرة استرلينيه فالمرجو ان تضعوا نصفها في بنك لوندرا وان تشتروا سهاماً بالنصف الآخر واشتروا بقيمة سهامي التي في البنك الانكليزي عربات في لوندرا وخذوا من محل ستراند خمسة عشر الف ليرا واشتروا لي بها املاكاً بعد ما تعطوا منها مائة ليرا الى بالميري اخوان . بعد ما تأملت

رأيكم بامعان رأيت ان وضع الدراهم حيثما ذكرتم لا يوافقني بكوني أبا عائلةٍ واني وان أكن متأكدًا انكم لا تضعون الدراهم الا في أماكن أمينة الا أني لا أريد ان أزيد ربحي بمكسبٍ أصله لعب القمار هذا مع الرجا بقبول تحياتي الخ

الحاج

استافروس

— هل يتكلم عنا ؟ سألتني ماري آن

— لا يا سيدتي فانه يكتب حسابات

— أيوجد حسابات هنا ؟ مستحيل

— هل سيدي والدك شريك في احدى البنوكة ؟

— بلى في محل بارلي اخوان

— هل يوجد بنكيين من ذات الاسم في لوندرا ؟

— لا يا سيدي

— هل سمعتِ بان محل بارلي يشتغل مع المشرق ؟

— نعم فانه يشتغل مع العالم اجمع

وهل تسكنين كافنديس سكوبر

— لا يا سيدي فهناك محل البنك وأما منزلنا فهو في بيكاديلي

— ممنون يا سيدتي فدعيني اصغى لبقية المكاتيب فان مكاتيب هذا الملك مما تلذ

وابتدأ الملك ان يملي لائحة طويلة باسم جورج مكروماتي ضابط في القصر ليقرأها علنًا لاصحاب السهام وقد املاها بدون ان يراجع ادنى قيد و بدون ان يغلط في رقم و بدون ان يفتش على كلمة ولم اكن افتكر بان ذاكرة شيخ كهذا تكون بهذا المقدار قوية :

حساب معطى عن اعمال جمعية ملك الجبال الوطنية

تمرين ١٨٥٥ — ١٨٥٦ عن معسكر الملك في ٣٠ نيسان سنة ٥٦

يا سادتي

ان الوكيل الذي شرفتموه بامانتكم يعلن لكم في التمرين الرابع عشر مختصر أعماله السنوية فمن تاريخ عقد جمعيتنا هذه لم تصادف أعمالنا مضادات وتعسرات نظير هذه السنة فحلول العساكر في البيره وحدود تركيا حصرت أعمالنا في نقطة صغيرة لا نقدر ان نتخطاها لنقوم بواجباتنا الوطنية وأسباب نقص دخلنا عديدة منها الفاقة العمومية وقلة الدراهم وتأخر المواسم ومرض الدوالي وقلة واردات الزيتون وعدم زيادة الحبوب عن احتياج الزراع فالحصول على واردات باوقات كهذه عسر جدًا الان جمعيتنا تُعلق بكل الاهالي فان كانت الاهالي في يسرٍ فنحن كذلك لاننا لا نقدر ان نأخذ شيئًا ممن لا شيء عنده ولا نقدر ان نأخذ الا القليل من الذي ليس عنده الا القليل وخصوصًا قد قل دخول الاجانب الى بلادنا فان منهم جل دخلنا والجرائد الاوروبية لا تزال تتكلم عنا حتى منعت السياح ان يأتوا جبالنا ومع كل هذا يا سادتي فقد ربحنا وان يكن أقل مما كنت ارجو فهو اكثر مما تأملون ولا أقدر ان أطيل الحديث بهذا الخصوص فاترك الكلام والحديث للارقام فالحساب افصح من ديموسيتنوس الخطيب فرنك

٢٦١٤٨٢ دخلنا من أول اذار سنة ١٨٥٥ لغاية نيسان سنة ١٨٥٦

منها مصروفات كما يأتي

٢٦١٤٨ العشر المدفوع الى الكنائس والاديرة

١٢٠٠٠ فائض الراسمال ١٠ بالمائة

٥٢٠٠٠ مصروف ثمانين رجلاً عن كل شخص ٦٥٠ فرنكاً

٠٢٥٤٠ تصليح طريق ثيب الذي كان عديم السلوك لتسهيل السفر وتوقيف المسافرين

٠٧٠٥٦ سلاح وأثاث

٠٥٨٣٥ مصاريف المحافظة على الطرق

٠٠٠٠٣ مصاريف المكتب

فرنك

١١٩٠٠ هدايا لبعض الجرائد

١٨٠٠٠ هدايا لتشجيع بعض مستخدمي الحكومة

١٣٥٤٨٢ مجموع المصارفات

١٢٦٠٠٠ اذ أخرجنا المصارفات من قيمة الدخل يكون الربح

فبحسب المعاهدات والشروط يتوزع الربح المرقوم كما يأتي :

٠٦٠٠٠ لبنك التقاعد في آتينا

٤٠٠٠٠ الثلث للرئيس

٨٠٠٠٠ الثلثين لتتوزع على أصحاب الاسهام ويكون للسهم ٣٣٣ فرنك و٣٣ سنتيم

١٢٦٠٠٠

وزد على هذا المبلغ خمسين فرنكاً من الفائض وخمسة وعشرين من بنك التقاعد فيكون قد ربح السهم ٤٠٨ فرنك و٣٣ سنتيم فالدراهم موضوعة اذاً ٨٢ بالمائة فهذه نتيجة أعمالنا في التمرين الرابع عشر فما يكون اذاً دخلنا حين تذهب الدول من بلادنا ويقل عدد العساكر الحالة بها ؟ رئيس الجمعية الوطنية

الحاج استافروس

وبعد ما قرأ الثلثة مكاتيب بعجلة زائدة ختمها وسلمها لكتابه ليجروا القيودات اللازمة بحقها ونادى الضباط الذين ذهبوا للسلب فكان كل واحد منهم يسلم عليه بوضع يده على صدره ويكلمه كلاماً وجيزاً باحترام زائد وأقدر ان أؤكد لك بأن لويس العادل لم يكن محترماً من اهالي قسنان نظيره .

فالضابط الذي تقدم بالاول كان من أهالي كورفو وقد هرب من الحكومة لحريقة كان سببها والتجاء الى معسكر ملك الجبال وبفطنته ودرايته وحذقه ارتقى في برهة وجيزة ولكنه لم يكن محبوباً من رئيسه ولا من عساكره ولا من أحد فكانوا يظنون به ان يأخذ لنفسه البعض من الغنيمة فالحاج استافروس سأل هذا الكورفي

— ما عملت ؟

— ذهبت مع الخمسة عشر رجلاً الى طريق ثيب وصادفت خمسة وعشرين عسكرياً .

— اين بنادقهم ؟

— تركتها لهم لعدم وجود الكبسول

— حسن وبعد ذلك ؟

— أوقفت كل الذين كانوا راجعين من البازار

— كم شخصاً ؟

— مائة واثنين وأربعين

— وكم أخذت منهم ؟

— الف وستمائة فرنكاً

— اثنا عشر فرنكا ثمن كل شخص ؟ مبلغ زهيد

— لا بل مبلغ عظيم فكلهم قرويون

— ألم يبيعوا اذاً حبوبهم ؟

— البعض باعوا والآخرون اشتروا

ثم فتح الكورفي كيساً كان معه وفرغ ما فيه وبينما كان الكتاب يعدون الدراهم سأله الملك

— اما معك جواهر ؟

— لا

— ألم يكن معهم نساء ؟

— بلى ولكن لم أجد شيئاً مما يستحق ان أحضره

— ما الذي أراه في أصبعك ؟

— خاتم

— أمن ذهب ؟

— لا أدري اذا كان من ذهب او من نحاس

— من اين أتاك ؟

— اشتريته منذ شهرين

— لو كنت اشتريته لكنت تعلم أهو من نحاس أم من ذهب اعطني اياه . فنزع الكورفي الخاتم من أصبعه ووضعه في علبة مملوءة جواهر .

— اني اسامحك هذه المرة فسكان بلادكم يثلبون شرف السرقة باستعمالهم معها الاحتيال فلو كانت كل عساكري نظيرك لكنت التزم ان أضع أخشاباً على الطريق تمنع دخول وخروج المارة الا مشاةً فمن عدد الدواب أعرف المسافرين وعددهم وأقبض دراهمهم . هيوا ! فليات غيره !

فتقدم شاب ممتلي الوجه يفتر ثغره عن اسنان كالعاج ولكن عيناه المستديرتان تدلان على خبثه فلما تأملته قلت لا بد من انه يرجع الى الصراط المستقيم وعلى ما أظن ان هيئتي أعجبته لانه حياني بكل أدب واحترام لما جلس تجاه الملك

— ما عملت يا باسيلي ؟ سأله الملك

— وصلت البارحة مساء مع ستة رجال الى قرية بيكاد ياخاصة زمبيلس عضو المجلس

— حسن

— فزمبيلس كان غائباً ولكن اقرباءه ومستخدميه كلهم كانوا مجتمعين في المنزل

— حسن

— فدخلت الفندق وايقظت صاحب الخان وأشتريت منه خمسة وعشرين كيساً من التبن وعوضاً عن دفع الثمن قتلته

— حسن

— فوضعنا التبن على البيت الخشبي واشعلنا النار دفعة واحدة من سبع جهات والريح كانت موافقة جداً لذلك

— حسن

— فانسحبنا نحو الآبار ولما استيقظت القرية ركض القوم نحونا ليأتوا بالماء لاجل اطفاء النار فاغرقنا ثلاثة اشخاص لا نعرفهم وهرب البقية

— حسن

— ورجعنا الى القرية وكانت خاوية ووجدنا بها ولداً صغيراً يبكي على فقد اهله فالقيته في النار فكف عن الصراخ

— حسن

— فاخذنا من النار واحرقنا الزيتون ورجعنا وتغدينا عند منتصف الطريق ودخلنا المعسكر عند الساعة التاسعة بكل خير وسلامة

— حسناً فعلت فزامبيلس لا يعود يتجاسر ان يلفظ خطباً ضدنا هيا فليأت شخص آخر .

وعند رجوع باسيلي . لم عليَّ ثانية ولكني لم اجاوبه على ذلك واتى عوضاً عن ذلك الشيطان الذي اسرنا وكان يدعى سوفولكيس ولما ابتدأ بالكلام شعرت بقشعريرة في كل جسمي وقلت لمادام سيمون

— ليس من الموافق ان تتكلمي كلاماً غير لائق

— انا انكليزية فاعرف كيف اتكلم وأسلك

فالتفت الملك وترجانا ان نسكت ونترك الكلام للخطيب . فوضع سوفولكيس أمام الحاج استافروس كل ما أخذه منا ثم أخرج من زناره اربعمائة وسبعين فرنكا ووضعها على الارض مع بقية المال المسلوب وقال

— هذه الفرنكات اخذتها من قرية كاستيا والباقي من هؤلاء الميلوردية لانك أمرتني ان أخرب الضواحي فابتدأت بالقرية

— لم تفعل حسناً أجابه الملك فاهالي كاستيا جيراننا وكان من الواجب عليك ان لا تلمسهم فكيف تقدر نعيش بامان اذا كانت الاعداء على ابوابنا ؟ ومع ذلك

ينفعونا عند الضرورة

– اني لم أخذ شيئاً من الفحامين فانهم حال قدومنا دخلوا الاحراش ولكن مختار القرية كان طريح الفراش في بيته

– وما قلت له ؟

– طلبت منه دراهم فأجاب ليس عنده ولا فلس فألقيته في كيس ووضعت معه قطة فصار يصرخ ويقول بان كنزه مخبا ورا الباب تحت حجر كبير فانهضت الحجر ووجدت هذه الفرنكات

– اخطأت بذلك فمختار القرية سيهيج كل الاهالي ضدنا

– لا يا سيدي لاني عند ما تركته نسيت ان أخرجه من الكيس فتكون قد اكلت القطة عينيه لحد الآن

– حسن ! حسن ! ولكن من الآن وصاعداً لا اريد ان ازعج الجيران أفهمتم جميعكم ؟ والآن اذهب يا سوفولكيس الى مكانك

فقد قرب استنطاقنا والحاج استافروس عوضاً عن ان يحضرنا امامه اتى وجلس على الارض بقربنا فمن هذا الاحترام الزائد اطمأنت نفوسنا واستراح بالنا ولكن خيفة من ان نتكلم ما دام سيمون كلاماً غير لائق تقدمت وعرضت حالي نظير ترجمان فشكرني الملك ببرودة ونادى الكورفي الذي كان يعرف الانكليزية

– يا سيدتي قال الملك لمادام سيمون يظهر لي انك غضبانة فما السبب يا ترى هل من الرجال الذين قادوك الى هنا ؟

– نعم فانهم أوقفوني ورموني على الارض وسلبوني امتعتي وزيادة على كل ذلك تركوني اموت من الجوع

– لا تؤاخذيني يا سيدتي لانني مضطر ان استخدم رجالاً عديمي التهذيب وتأكدي ان كل ما عملوه لم يكن من بعد أوامري . هل انت انكليزية ؟

– انكليزية من لوندرا

– قد ذهبت منذ عهدٍ ليس ببعيد الى لوندرا واني أحب الانكليز ومن كوني أعلم انهم ذوو قابلية جيدة امرت حال وصولكم باحضار المرطبات وانني اعرف ان السيدات الانكليزيات لا يطقن المشي على الصخور ولا يحملن الا الاشياء الضرورية فاني لا اصفح عن ذنب سوفوكليس الذي سلبكم امتعتكم خصوصاً اذا كنت من عائلة شريفة .

– اني من اشرف عيال لوندرا

– تنازلي يا سيدتي واقتبلي الدراهم التي لك هل انت غنية ؟

– غنية جداً

– هل هذه العلبة الفضية لك ؟

– لا بل هي لابنتي

خذي أيضاً كل ما يخص ابنتك وهل هي غنية أيضاً ؟

– نعم غنية جداً

– وهل هذه الامتعة تخص سيدي ابنك

– الخواجه ليس بابني فانه الماني ومن كوني انكليزية فكيف يكون لي ولدٌ الماني

– هل يبلغ دخلك العشرين الف فرنك ؟

– اكثر

– احضروا سريعاً سجادة للسيدتين ! وهل يبلغ دخلكما الثلاثين الف فرنك ؟

– اكثر ! اكثر !

– ينبغي ان اعاقب سوفولكيس لانه اوقفكم وانت يا لوكوتيت اخبر القوم باحضار الغذاء ! أيمكن يا سيدتي انك تكونين صاحبة ملايين ؟

– نعم يا سيدي

– قد صرت مخجولاً من المعاملة التي أجروها بحقكما وهل لكما معارف في آتينا ؟

— انني اعرف السفير و.....

— وهل تعرفين يا سيدتي بعض التجار أو بعض أصحاب البنوكة ؟

— أخي الذي في آتينا يعرف عدة بنوكة

— حسن ! حسن ! تعالَ يا سوفوكليس واطلب السماح من هاتين السيدتين

فابدي سوفوكليس من الاعتذارات ما لم افهمه وأخذ الملك يقول

هاتان السيدتان من عائلة انكليزية شريفة وعندهما اكثر من مليون فرنك وهما في سفارة انكلترا واخوهما الذي في آتينا يعرف عدة بنوكة من البلد فكان من الواجب عليك يا سوفوكليس ان تعاملهما بما يليق بمثلهما وان تقودهما الى هنا بلطف وان لا تسلبهما أمتعتهما لانه عند ما يصادف الانسان شخص من هاته الرتبة يعاملها باحترام ويقدم لهما كل واجباتهما لبينا اخوهما أو السفير يدفع فديتهما مائة الف فرنك !!!

يا أسفاه عليك يامادام سيمون ويا أسفاه عليك يا ماري آن فكلتاهما لم تكونا منتظرتين هذا الختام ولكني لم اندهش من ذلك لاني اعرف الحاج استافروس بما سمعته عنه فابتدأت اذاً في الكلام بكل جسارة

— احفظ عندك كل ما سلبته رجالك مني لان هذا كل ما تقدر ان تأخذه مني فاني فقير وأبي ليس عنده شيء واخوتي يأكلون الخبز الناشف ولا اعرف بنوكة ولا سفارات فاذا ابتدأت تطمعني بأمل الفدية فلا تقدر ان تسدد مصاريفك واني احلف لك على ذلك .

فتذمرت كل اللصوص ولم يصدقوني ولكن الملك أجاب بكل هدو

— اذا كان الامر كذلك فلا ابقيك عندي وخير لي رجوعك الى المدينة فهذه السيدة تعطيك مكتوباً لاخيها وتذهب الآن اللهمَّ اذا ما اردت البقاء في الجبل يومين او ثلاثة فاني اضيفك لانك لم تأت عبثاً الى هنا ومعك هذه العلبة الكبيرة .

فلما سمعت هذا الكلام صرت أرى الملك وكتابه واللصوص أقل وحاشةً

ومنظر الصخور العارية لم يعد وعراً كالما صرت انظر اليها باعين ضيف لا باعين أسير وصرت اريد البقاء يومين أو ثلاثة ايام في الجبل اولاً لاخبر مدام سيمون بحادثة بنتي ميسترا ولانصحها لانها تكون السبب في قتلها وقتل ابنتها اذا اصرت على عنادها وثانياً لاجمع ثلاث او اربع نباتات من البارنيس نادرة الوجود في غير محلات وخصوصاً نبات زهرة عين البقر فاجبت الملك

— أقبل ضيافتك ولكن بشرط

— وما هو ؟

— ان ترجع لي علبتي

— أعطيك اياها ولكن بشرط أيضاً

— وما هو ؟

— ان تخبرني عن فائدتها

— انها تفيدني لوضع النباتات التي أجمعها

— ولماذا تجمع النباتات ؟ أتبيعها ؟

— لست بصيدلاني بل بعالم

— حسن ! حسن ! أجابني هذا ومد يده نحوي وظهرت علامات الفرح على وجهه . اجدادنا كانوا علماء ولربما أولادنا سيصيرون وأما نحن فالوقت لم يساعدنا لنصير نظيرهم وهل العلماء محبوبون ومكرمون في بلادكم ؟

— كثيراً

— هل يعينونهم في مناصب معتبرة ؟

— في أغلب الاحيان

— وهل يدفعون لهم مبالغ باهظة ؟

— قدر كفائتهم

— وهل يعطونهم نياشين والقاباً ؟

— في بعض الاوقات

— أصحيح ان البلاد تتخاصم على شرف العلماء الذين يكونون عندهم ؟

— نعم ولكن في المانيا فقط

— وهل اذا مات واحد منهم يعدون ذلك تعاسة عمومية ؟

— نعم

— فاذاً لا تقدر ان تتشكى من ابناء وطنك ؟

— لا يا سيدي بل بالعكس فان كرمهم سبب اتياني الى اليونان

— وهل تسافر على حسابهم ؟

— نعم ياسيدي فقد صار لي الآن ستة أشهر

— فاذاً انت عالم شهير

— انني دوكتور

— أيوجد في العلوم رتبة أعلى من رتبة دوقتور ؟

— لا

— وكم دوقتور يوجد في البلد التي انت قاطنها ؟

— لا اعلم عددهم بالتمام ولكنهم ليسوا اكثر من قواد آثينا

— آه ! من المستحيل ان احرم بلادك منك فانك سترجع الى هامبورغ يامسيو الدقتور فماذا يقولون يا ترى اذا سمعوا بانك اسيرفي جبالنا ؟

— يقولون بانها تعاسة عظيمة

— فعوضاً عن فقدك ستدفع مدينة هامبورغ ١٥٠٠٠ فرنك فداك فخذ علبتك اذاً قتش على النبات وخذ دراهمك انتي هنا لانني اعتبر العلماء ولكن ينبغي على بلدك مشتراة مجدها فاعلم اذاً ما هي اهمية تعب دقتور الذي زيد على اسمك فلو كنت جاهلاً مثلي لما طلبت منك ولا بارة فديتك

وبعد ما قال هذا فض الملك الجلسة ولم يعد يصغى الى كلامي ولا لصراخ مدام

سيمون بل أشار لنا باصبعه نحو اوضة الأكل

— سأفترس كل الطعام صرخت مدام سيمون ولكني لا ادفع ولا بارة

اما ماري آن فمع انها كانت حزينة لم تتمالك نفسها من ان تصرخ فرحاً لما رأت غرفة الاكل التي هي عبارة عن مرج صغير كسجادة في الصخر وحولنا النباتات المعرشة الخضراء والمزهرة وكانت احسن بما لا يقدر من دهان الحيطان وفوقنا القبة الزرقاء حيث نسران يحومان رواحاً ومجيئاً كانهما خلقا لاجلنا وفي زاوية الغرفة نبع رائق كالالماس تجتمع مياهه ثم تفيض من الحدود فتجري في مجراها ومن هذا الجانب كان يمتد النظر الى ما لا نهاية له فكنا نرى منه القصر الابيض الذي في آثينا واحراش الزيتون والسهول المتسعة وخليج سارونيك الازرق الذي يخال للناظر انه قطعة من السماء سقطت على الارض والتصقت بها وانه لم تهتم مدام سيمون بهذا المنظر ولكنها اقرت بانه لو كان في باريس او في لندرا لكان يكلف كثيراً .

فوضعت المائدة وعليها خبز اسمر ذو رائحة كريهة وقصعة من اللبن والزيتون في صحون خشبية والجبن في كيسه والسلاطة بدون ادام ولكن الملك اعطانا ملاعقه وهي قطع من الخشب تهندست بضرب السكاكين وكنا نستعين باصابعنا الخمس ولم يقدموا لنا لحماً ولكنهم اعطونا دخاناً من الجنس المفتخر

والكورفي ذو الخاتم الذهبي كان مكلفاً ان يقوم بخدمتنا لانه يعرف اللغة الانكليزية فصار يقطع الخبز بخنجره ويقوم لنا بايديه من كل انواع المأكل

— هل معلمك يفتكر باننا سندفع له الفدية ماية الف فرنك ؟ سألته مادام سيمون ولكن بدون ان تكف عن الاكل

— لا يفتكر بذلك يا سيدتي بل يؤكده

— فيظهر اذاً بانه لا يعرف الشعب الانكليزي

— لا ياسيدتي فانه يعرف الانكليز جيداً كما أعرفهم انا أيضاً

— قل اذاً لهذا استافروس بانه سينتظر طويلاً الماية الف فرنك

— قد أمرني باخطاركم بانه سينتظرها لحد ١٥ اذار الظهر

— واذا لم ندفع في ١٥ اذار الظهر؟

— يضطر لقطع رأسك ورأس السيدة ابنتك

وعند هذا الكلام سقط الخبز من يد ماري آن

— اعطني قدحاً من النبيذ

فقدم لها اللص قدحاً ملاناً ولكن حالما لمس شفتها صرخت من الفزع ظانة بانه مسموم فسكنت روعها بأخذي القدح وشربه دفعة واحده قائلا لها

— لا تخافي ! ففيه صمغ

— ولأي شيء هذا الصمغ ؟

— ليبقى النبيذ زمناً طويلاً بدون فساد

ومع كل ذلك أصرت ماري آن على شرب الماء فقط فاحضر لها اللص من النبع وقال لها

— هل تفتكرين بان الملك يسم شخصين كريمين نظيركما أما انت يا سيدي قال هـذا والتفت اليّ لك ثلاثون يوماً فقط لتنهي بها دروسك وتدفع الفدية وانني مكلف أيضاً باعطائكم كل ما يلزم لاجل الكتابة

— شكراً لالطافك اجابته مدام سيمون فسافتكر بذلك من الآن الى ثمانية ايام هذا اذا لم نكن قد خلصنا بعد

— ومن يخلصكم يا سيدتي ؟

— انكلترا

— انها لبعيدة يا سيدتي

— الجنود

— اتمنى ذلك لكم من ضميم الفؤاد ولكن من الآن بينما تخلصكم الجنود بماذا تؤمرون ؟

— أولاً أريد اوضة للنامة

— يوجد بالقرب من هنا مغائر ولكنا وضعنا بها في الشتاء الماضي قطعان من الغنم فلم تزل بها الروائح الردية ولكني سآخذ لكم خيمتين من الرعوان واتصبها لكم هنا لحد مجيء الجنود

— أريد خادمة أيضاً

— أمر سهل جداً فقد نوقف أول فلاحة تمر ونحضرها الى هنا هذا اذا لم تمانع الجنود ذلك

— أحتاج أيضاً الى ثياب وصابون ومرآة وامشاط وروائح طيبة و.....

— قد طلبت كثيراً يا سيدتي ولكي نوجد كل ذلك ينبغي ان نحاصر آتينا ونسلبها ولكن سنبذل جهدنا باحضار كل ما يلزمك فاتكلي عليّ وليس على الجنود.

وبينما نحن في الكلام سمعنا صوت (كيريه ايليصون) يردده الصداء فالتفتنا ورأينا الشيخ الراهب آتياً يزورنا وهو يرتل على الطريق فسلم علينا ووضع امامنا وعاء مملوءاً من العسل وقال

— تفضلوا كلوا ! فطبوري تقدم لكم فاكهتها

فشكرناه على لطفه ولكن مادام سيمون وابنتها اعرضتا عنه لانهما كانتا معتقدين بانه شريك اللصوص مع ان المسكين لم يكن كذلك فانه لم يكن يعرف الا ترتيل صلواته والاعتناء بنحله وبيع العسل وقبض دخل الدير وهو يعيش بسلام مع جميع الناس وليس بذكي أو بصاحب معارف فكان كآلة يديرها الريح حتى انه على ما اظن لم يكن يعرف الخير من الشر ولا ان يفرق ما بين رجل شريف ولص فكل حكمته ومعارفه وعلمه هو ان يأكل أربع مرات في النهار وان يشرب النبيذ ومع كل ما ذكر فهو أشهر واتقى راهب في طغمته

ولما أبتدأت بالاكل من عسله طلب منا ان نسمح له بشرب النبيذ و بدون انتظار الجواب شرب عن صحة كل واحد منا ثم نادى خمسة أو ستة لصوص كانوا

واقفين امام الباب وشرب كاساً من الخمر عن كل شخص منهم ولم يمض وقت قليل الا وصرت العن مجيئه لان اكثر اللصوص تربعوا حولنا بسببه فالبعض ليتعرفوا بنا والاخرون ليقدموا لنا خدماتهم وغيرهم بدون سبب كانسان داخل الى بيته كما ان بعضهم اخذوا يترجونا ان نحكي لهم تاريخاً والبعض كانوا يختبئون حول ارفاقهم ويدفعونهم نحونا وغيرهم بعد ما اكلوا صاروا يتمددون على العشب الاخضر وتشجعت البراغيث بحضور معلميها وأصحابها وصارت تزحف الينا جيوشاً جرارة حتى انني مسكت خمسة منها عن قفا يدي فكنت أعطي ثلاثة ارباع نباتاتي في ذلك الوقت لاختلي وحدي مقدار ربع ساعة فقط ومادام سيمون وابنتها كانتا مثلي وقد لحظت ذلك من كلامهما المنخفض

— ستخلصنا الجنود من اللصوص ولكن من يخلصنا من بين أيدي البراغيث؟

فعند استماع هذا التشكي تحركت بي نخوة الجاهلية فنهضت وقلت بصوت عالٍ للمجتمعين حولنا :

— ان جلالة الملك قد اعطانا هذه الغرفة لنبقى بها وحدنا لحين وصول فديتنا وليس لتأتوا وتجلسوا معنا ! ألا تخجلون بان تأتوا حول المائدة مثل الكلاب الجياع ؟ فما شغلكم هنا ياترى ؟ ان كان لاجل المحافظة هل تظنون باننا نقدر على الهرب ؟ من أين نهرب ؟ أمن الشلال ؟ أم من غرفة الملك ؟ فاتركونا اذاً وحدنا وابعدوا عنا ! هيا يا كورفي لنطردهم خارجاً !

وحالاً اقرنت القول بالفعل فصرت أدفع اللصوص واوقظ النائمين وباقل من القليل وبخضوع تام خرج هذا الجيش جيش مدجج بكل أنواع السلاح ولكن نظير التلامذة الذين يدخلون المدرسة بعد انتهاء الفرصة ولما بقينا وحدنا مع الكورفي قلت لمادام سيمون

— يا سيدتي قد صار المحل لنا وحدنا فاذا حسن عندك لنقسم المخدع الى قسمين واذ اني لا احتاج الا الى زاوية صغيرة لانصب بها خيمتي فاني اقطن وراء هـذه

الاشجار فيكون لكما بقية كل المحل والتبع أيضاً

فكلامي هذا لم يلق حسن القبول لان هاتين السيدتين افتكرتا بان كل المحل لهما واني ساذهب وانام بين اللصوص والبراغيث ولكن الكورفي استصوب قسمتي هذه واكدها لانها تخفف حراسته واتفقنا بان ينام عندي ولكن على بعد ستة أقدام انكليزية مني وبعد ما ابرمت المعاهدة جلست في زاوية لاحطاد الحشرات التي كانت تضربي ولكن لم تمض برهة الا واللصوص داخلون علينا بدعوى انهم يحضرون الخيم فما دام سيمون لم تملك نفسها عن الصراخ لما رأت ان خيمتها عبارة عن قماش يرفع على خشبة وتربط اطرافه بحبال في الارض وهو مفتوح للهواء من جهتين ولكن الكورفي صار يحلف لنا باننا سنعيش كالامراء الا اذا صارت عواصف وامطار وبعد غرز الاوتاد احضر اللصوص الفرش والاغطية أي سجادات وجلود ماعز ثم عند الساعة السادسة أتى الملك بذاته ليأكد انه لم يعد ينقصنا شيء فاجابته مادام سيمون انه ينقصها كل شيء وطلبت من الملك ان يطرد كل الزائرين الذين لا لزوم لهم فقرر نظاماً صارماً عليهم ولكن اطاعة النظامات صعبة جداً على اليونان

وبعد ذهاب الملك وحشمه أحضروا العشاء فجلست امام ماري آن وصرت أرى وجهها الملون ألواناً غريبة من نور الخشب الصمغي الذي كان ينير المائدة وكنت انظر الى عينيها اللتين لم تزالا تلمعان من وقت الى آخر كنور فنار دوار واسمع صوتها الرخيم وأفتكر بحكايات الف ليلة وليلة واذ كنت تعباً جداً في ذلك النهار شعرت بميل غريب الى النوم فحييت السيدتين تحية المساء وذهبت الى خيمتي حيث نسيت الخطر والفدية وعض البراغيث فاغمضت عيني ونمت .

ولكني استيقظت بغتة من دوي اطلاق البوارید ونهضت بسرعة زائدة فلطم رأسي بالخيمة وتألمت من ذلك وفي ذات اللحظة سمعت صوت امرأتين تصرخان :

— لقد خلصنا ! لقد خلصنا ! هوذا الجنود !

ورأت عدة اشباح تمر راكضة أمامي فمسكت باول شخص واذ به الكورفي فناداني

— قف عندك الى أين تذهب ؟

— الى أين أذهب يالعين ؟ اني ذاهب لارى اذا لم تنته الجنود من قتل رفقائك فمادام سيمون وابنتها لما سمعتا صوتي جاءتا اليّ

— اليوم لا تأتي الجنود قال لنا الكورفي فاليوم عيد الصعود وعيد أول آذار دخول الربيع فالضجيج الذي سمعتموه ليس الا علامة الفرح فقد مضى الآن نصف الليل والى مثل هذه الساعة غداً يشرب رفقائي الخمر ويأكلون اللحم ويحرقون البارود ويرقصون ويغنون فاذا أردتم الذهاب للفرجة فاني مستعد لان أقودكم الى المعسكر حيث تخف حراستي

— تكذب ! قالت له مدام سيمون هولاء هم الجنود

— هلمّ لنرى ! قالت ماري آن

فمررنا بغرفة الملك حيث ظهر لنا المعسكر مضيئاً كما لو كان محترقاً وبالواقع كانت أشجار من الصنوبر تحترق في نصف الساحة وحول النار خمسة أو ستة جماهير من اللصوص جالسون يشوون الخراف وفي وسطهم قوم يرقصون على أنغام تشمئز منها الآذان واطلاق الرصاص كان متتابعاً من كل جهة حتى انني سمعت صفير رصاصة مرت بقرب أذني وكان الملك جالساً على سجادته ينظر أعمال جيشه وحوله دجاجانات الخمر تفتح كالقناني والخراف تذبح كالحجال فصرت أنظر الى الموسيقى التي ليست الا طبل وزمر والى الراقصين الذين نزعوا احزيتهم الحمر وكانوا كأنهم يتقاتلون فتراهم يقفزون ويثبون ويترنحون ذات اليمين وذات الشمال ومن وقت الى آخر كان يذهب واحد منهم يشرب خمراً ويأكل لحماً ويطلق طلقاً من بارودته ويرجع الى الرقص وبالاجمال كل اللصوص ما عدا الملك كانوا يأكلون ويشربون ويثبون ويصرخون ولكن لم أرَ قط شخصاً يضحك ولما اقتربنا من الملك اعتذر منا قائلاً

— لست مذنباً ولكنها العوائد لان هولاء الابطال لا يفتكرون بانهم في أوائل الربيع لو مر أول أذار بدون اطلاق البنادق فليس عندنا هنا غير رجال بسطاء نموا

في البرية وهم على العوائد القديمة وانني مجتهد بتهذيبهم ولكني سأموت قبلما أرى ذلك لان الرجال لا تغير عاداتها بسهولة واني كنت استلذ واسر جداً بمثل هذه العوائد قبلما عرفت التمدن الاوروبي وانني ادفع الآن اعز ما عندي لارجع الى سن الصبا أو الى سن الخمسين فعندي افكار ومواضيع شتى اتهذيبهم ولكني مثل اسكندر الكبير ما لي وريث ليخلفني ويكمل ما ابتدي به فكان من اللازم ان تكون معي قائمة بسكان المملكة وحالتهم المالية وان اعين شخصاً مخصوصاً في كل مرفاء ليعلمني عن اسماء الاجانب الذين يأتون اليونان وعن غناهم وبهذه الواسطة اعرف مقدرة كل منهم فلا ارى نفسي معرضاً لان اطلب قليلاً أو كثيراً وكنت اضع في كل مركز وفي كل محطة اناساً مهذبين وأبني عندي للاسرى الذين نظيركم محلات شاهقة محاطة بالجنائن الجميلة ولا تفتكر ان ذلك يكلفهم اكثر كلا ! لانه لو كان كل الذين يأتون المملكة يقعون تحت يدي لكنت احدد رسماً لا يذكر مثلاً كل وطني وكل اجنبي يعطيني اربعة بالماية عن غناه وحينئذٍ تصبح اللصوصية رسم خراج وهذا الرسم عادل لانه متوزع على الناس كلٌ حسب غناه ونقدر ان نجعل تسهيلات اذا لزم الامر ذلك فمثلاً بدفع مبلغ معين يأخذ الوطني ورقة رخصة عن كل السنة ويعلم على ورقة سفر الاجنبي فيجولان في الجبال ولا معارض وان اعترضت بان الرسم لا يتم الا باتفاق اصوات المجلس فلو كان معي وقت لكنت اعين كل المجلس وكل الحكومة تصبح بيدي وعند الضرورة اعين وزارة قطاعي الطرق ويلزم لتتميم هذه الافكار اربعة ملايين من الفرنكات فقط ولكنها تتعوض بأقرب وقت باضعاف الاضعاف

ثم تنهد وأزاد

— ولا تتعجب من الحرية التي اكلمك بها لانها طبيعة نمت معي من حين ولادتي فاني خلقت لاموت في الفلا ومهنتي هذه تكون عاراً عليّ اذا استعملتها سراً فاني لا اخاف من أحدٍ وعند ما نقرأ في الجرائد بان الحكومة ساعية بالتفتيش لالقاء

القبض علينا قل بدون تردد بان ما قرأته لم يكن الا اختراعاً من الحكومة لانها تعرف دائماً أين أنا موجود فانني لا أخاف من الحكومة ولا من الجنود ولا من القضاة فالوزراء يعرفون باني قادر على تغييرهم بأقل اشارةٍ والجنود تحبني وتخصني لاني أخذ منهم انفاراً فارجعهم ضباطاً ومن جهة القضاة فانهم يعلمون احساساتي نحوهم فانني لا أحبهم ولكني أشفق عليهم لانهم فقراء ولهذا السبب لا يصيرون عادلين فاني أنفق على البعض منهم وأعطي هدايا للآخرين وأشفق غيرهم وبالاختصار اني حاكم هذه البلاد بأجمعها !

ثم أراني باشارةٍ من اصبعهِ السماء والبحر والارض وقال لي

— كل هذا ملكي فكل ما يتحرك في المملكة خاضع لي إما خوفاً أو حباً أو تعجباً وقد أبكيت كثيراً من العيون ومع ذلك لا توجد والدة إلا تريد ان يكون لها ابن مثل الحاج استافروس وسيأتي يوم يكتب به تاريخي وحينئذٍ تتنازع جزائر الارخبيل شرف ولادتي وتوضع صورتي مع الصور المقدسة ويتكلم المتناسلون من ابنتي ولو كانوا امراء عن جدهم ملك الجبال بفخرٍ وعنفوان !!!

فلربما تضحك من بساطتي ولكن هذا الخطاب الغريب أثر بي جداً وهذا الرجل المزمع على قطع عنقي في آخر الشهر كان يحرك بي عواطف الاحترام نحوه فلم أقدر أمنع نفسي من ان أقول لهُ

— بالحقيقة انك ملك !

فاجاب بتبسم

— حتى بين أعدائي يوجد من يملقني فلا تنكر لانك في هذا الصباح كنت تنظر اليّ كرجل تريد ان تراه مشنوقاً اما هكذا ؟ أجب بحرية

— بلى ياسيدي لانك اذا طلبت مائة الف فرنك من هاتين السيدتين لا توفزيهما لانهما غنيتان ولكن طلبت مني خمسة عشر الف فرنك مني انا الذي لا أملك شيئاً أمر لا يسلم به

— ان الاغنياء وحدهم قادرون على التجول في بلادنا لان نفقات السفر باهظة ومن كونك أدعيت بانك مسافر على نفقة غيرك فانا اصدقك ولكن الذين أرسلوك الى هنا يعطونك بالاقل ثلاثة الاف فرنك بالسنة فاذا دفعوا عنك خمسة عشر الف فرنك سلفاً فانهم يربحون لانك ستشتغل عندهم بهذا المبلغ عدة سنين لكونك لا تريد الموت هنا مقتولاً ولو عشت بقية عمرك تشتغل لاجل الآخرين

— ولكن الجمعية التي أرسلتني ليس لها رأس مال بل تأخذ من الحكومة مبلغاً معيناً كل سنة وهذا المبلغ لا يقوم بدفع فديتي لانه لم يفتكر أحد بما سيصير بي بطلب ذلك سلفاً من الحكومة في أول السنة وعلى كل حال فاني لا أعرف ان أشرح لك ..... فانك لا تقدر ان تفهم .....

— ولو فهمت هل تفتكر باني أرجع عما قلته لك ؟ كلاً ! فكلامي نظامات يجب على كل انسان اعتبارها حتى أنا فاني لا أقدر ان اغير بها حرفاً فاني قادر ان اكون ظالماً ولكن من المستحيل ان اكون ضعيفاً لان الضعف يضر بي فلو تعلم الناس باني رحوم لكانت اسراي تفتش على انواع الرجاء لتخلص وليس على الدراهم فاني لست مثل لصوص أوروبا الذين يرحمون عند ما لا تلزم الرحمة ويظلمون عند ما توجب الرحمة وينتهون اخيراً الى المشنقة فاني قلت لك بحضور شهودٍ بانك ستدفع لي خمسة عشر الف فرنكاً أواقطع رأسك فاختر لنفسك ما يحلو وعلى كل حال لا بد من أخذ فديتك أو قطع رأسك في آخر الشهر . ففي سنة ١٨٥٤ حكمت بالقتل على ابنتين بعمر ابنتي فوتين فكانتا تمدان أيديهما نحوي وهما باكيتان حتى حن قلبي الابوي لهما وباسيلي الذي قتلهما صار يرجف ومع ذلك لم أرحمهما لان الفدية لم تدفع أتفتكر بعد هذا بانك تخلص ؟ ماذا تقولا عني هاتان المسكينتان اذا سمعتا باني عفوت عنك لسبيل وجه الله ؟

فاطرقت ملياً ولم أجد كلاماً لأجاوبهُ ولكن بعد هنيهةٍ وضع يده بلطف على كتفي وقال لي

– تشجع يا شاب فاني نظرت الموت أقرب منك ومع ذلك لا أزال حيًا ففي مدة حرب الاستقلال أمر ابراهيم باشا باطلاق الرصاص علي سبع مراتٍ فالسابعة اصابتني في جبهتي وسقطت على الارض فلما أتوا ليأخذوا جثتي كنت اختفيت بين الدخان وهربت فانت لربما تعيش أيضًا اكثر مني فانك دوقتور ولك أصحاب يشترونك باكثر من خمسة عشر الف فرنك فاكتب لهم ومن جهتي انا فاني لا ابغضك وأكد بان موتك لا يسرني وأتمنى من صميم الفؤاد أن أرى فديتك مدفوعة وعلى كل حال خذ الآن هاتين السيدتين واذهب بهما الى المخدع لان رجالي قد شربوا زيادة عن المعتاد وهم ينظرون كثيرًا الى الانكليزيتين فاذا طال الحال لا اكون مسئولاً عن شيء خصوصًا اذا بقيت السيدة الظريفة هنا

وبالواقع كان خمسة أو ستة من اللصوص السكارى مجتمعين حول السيدة ماري ان يمدحونها بعبارات لم تكن تفهمها والحمد لله وقدم لها الكورفي قدحًا فابعدته بيدها بكل كبرياء حتى انسكب ما فيه الى الارض وحينئذٍ أشرت الى مدام سيمون فنهضت هي وابنتها ولكن حالما اقتربت لارافقهما تقدم باسيلي ووجهه أحمر لا بل قرمزي اللون من فعل النبيذ وأراد ان يمسك بماري آن فلا أعلم ما صعد على رأسي وقتئذٍ فهجمت عليه وضغطت على عنقه باصابعي العشرة وقبلما يمد يده الى زناره يسحب خنجره رأيته ملقى على الارض بعيدًا عني مقدار عشرين قدمًا وكانت يد الملك الجبار الذي فعلت هذا العمل العظيم فتذمر الحاضرون ولكن الحاج استافروس صرخ بهم بصوت أرعبهم

– اسكتوا واظهروا انكم يونانيون !

ثم قال لنا بصوت منخفض لكيلا تسمعه اللصوص

– هيوا بنا ! وانت يا كورفي لا تتركني ويا مسيو قل للسيدتين بانني سأنام على باب غرفتهما

وقبلما نبعد مقدار مائة خطوة مرت رصاصة بيننا ولكن الحاج استافروس لم

يتنازل أن يلتفت بل تبسم وقال لي

– ينبغي الغفران لان هذا اليوم عيد الصعود

وبينما نحن على الطريق تقربت من مدام سيمون وقلت لها

– معي سرٌ مهم لاخبرك عنه فاسمحي لي ان آتي اليكما حين يكون الحارس نائمًا

– لا يوجد بيننا أسرار أجابتني بكل فظاظةٍ

فكررت الرجاء عبثًا حتى قلت لها

– لقد وجدت واسطة لخلاصنا بدون دفع شيء

فنظرت الي نظرة مشكك ونظرت الى ابنتها واخيرًا قبلت أن آتي اليهما والحاج استافروس سهل اجتماعنا لانه دعا الكورفي لجانبه ونام بينه وبين الشبوقجي بعد ما تمنى لنا احلامًا مذهبة ولما سمعت غطيط الثلاثة وتأكدت ان الحراس ناموا نهضت من فراشي وزحفت نحو خيمة مدام سيمون فنظرت الام وابنتها جالستين على العشب تنتظراني لان العوائد الانكليزية لا تسمح بدخول رجل غريب الى مخدع النوم وحالما رأتني مادام سيمون قالت لي

– تكلم واستعجل فاننا نريد الراحة

– ما انا مزمع على قوله يساوي اكثر من ساعة من النوم أتريدان أن تخلصا قبل ثلاثة أيام ؟

ولكن ياسيدي سنخلص غدًا وإلاَّ فانكلترا ليست بانكلترا فديمتري قد اخبر أخي عند الساعة الخامسة وأخي ذهب الى الوزير وقت الاكل وأعطيت الاوامر قبل دخول الليل فالجنود على الطريق وسنخلص غدًا صباحًا ونتغذى في آتينا

– لا تتكلان على التقادير ولا على الجنود لان اللصوص تتكلم عنهم بهيئة يستنتج منها عدم مبالاتهم بهم ولنفرض انه قد اتت العساكر فالحاج استافروس الذي يعرف البلاد كلها يرسلنا الى محل آخر امين فالصخور رفقاءه والاحراش شركاءه والسواقي والطرق كلها عبيده وجبل الپارنيس تحت أمره وبالاختصار فهو ملك الجبال!

— حسن حسن يا سيدي فالحاج استافروس هو الله وانت نبيه واوكد لك بانه سيطرب اذا سمعك تمدحه بهذه العبارات وقد عرفت انك أحد اصحابه من كلامه السري معك وتبسمه أليس هو الذي اخبرك عن واسطة الهرب التي تريد ان تخبرنا عنها ؟

— ليس هو يا سيدتي بل من كلامه قد وجدت هذا الصباح الواسطة الوحيدة لخلاصنا فاكتبي لاخيكِ ان يجمع مائة وخمسة عشر الف فرنكاً مائة الف فرنك عنكم وخمسة عشر عني ويرسلهم الى هنا مع رجل أمين كديمتري مثلاً

— مع صاحبك ديمتري الى صاحبك ملك الجبال ؟ متشكرة يا سيدي فبهذه الواسطة نخلص من غير ان ندفع شيئاً !!

— ديمتري ليس بصاحبي والحاج استافروس سيقطع رأسي فكيف يكون صاحبي ؟ والدراهم التي تحضرونها تأخذون بها وصلاً

— حسن حسن ! ونعم الرأي !

— وبهذا الوصل ترجعان دراهمكما بدون ان تفقدا بارة واحدة وذلك كما ستنظران

— مساء الخير يا سيدي لا تتعب نفسك لاننا منذ دخلنا هذه البلاد سرقتنا جميع الناس فالجمرك سرقنا وأصحاب العربات سرقونا والخادم سرقنا والراهب المحترم اقتسم اسلابنا وكل هؤلاء الافندية الذين يشربون هناك هم لصوص والنائمون على بابنا ليحرسونا هم أيضاً لصوص فانت يا مسيو الشخص الوحيد الامين الذي رأيناه في بلاد اليونان ونصايحك هي الحسنى فمساء الخير اذاً يا سيدي

— بحياة أعز شيء عندك دعيني أقول كيف تقدرين على استرجاع دراهمك

— وكيف تريد ان أسترجعها اذا كان كل عسكر المملكة لا يقدر على ذلك ؟ أليس الحاج استافروس ملك الجبال ؟ هل نسي الطرق ؟ أولم تزل السواقي والاحراش متحدة معه ؟ فمساء الخير يا سيدي ساخبر اللصوص عن اهتمامك وغيرتك

وبأنك قد عملت واجباتك لاجلهم فمساء الخير اذاً يا مسيو ! ! وصارت تقول لي مساء الخير بصوتٍ عالٍ حتى اني خفت أن تستيقظ الحراس فهربت ودخلت خيمتي وصرت أفتكر بكل ما حدث معي في ذلك النهار : التفتيش على نبات عين البقرة : مصادفة الانكليزيتين : عيني ماري آن : بواريد اللصوص : الكلاب : البراغيث : الحاج استفاروس : خمسة عشر الف فرنك : حياتي بهذا المبلغ : عيد الصعود : مرور الرصاص بقرب أذني : وجه باسيلي ظلم ما دام سيمون : وما عاد ينقصني الا ان ادعى لصاً وأشرق النهار وأنا غارقٌ بتأملاتي المحزنة وكنت اتبع الشمس بنظري ثم صرت أسمع بعد سكون الليل ضجيجاً بعيداً ولم أقدر أن ارفع نظري لارى ما كان يحدث لان حواسي كانت ضعيفة من التعب واليأس وفي ذلك شعرت باني مقبور حياً وان خيمتي السوداء نعش مزين بالازهار وسمعت الغناء والتراتيل فوق رأسي ولم يكن ذلك حلماً لانني لم اكن نائماً فأخذني الخوف كل مأخذ وأردت الصراخ فلم أقدر وكنت لا أزال أسمع التراتيل وعرفت بان جنازتي كانت باللغة اليونانية فقصدت تحريك يدي اليمنى فلم أقدر فمددت يدي اليسرى فصدمت بالخيمة وسقطت منها باقةٌ من الزهر ففركت عيني وجلست على مقعدي وتأملت هذه الازهار الساقطة من السماء وعرفت بينها زهرة عين البقرة فصرت المس وأرى خمس بتلاتها المتصلة المكونة شفرة واحدة طويلة ومدقتها ذات الفريقة الواحدة والقلم الواحد والمسيمن ولكن بأي صدفة وجدتها في قبري ؟ وكيف أقدر أن ارسلها الى جنينة النبات في هامبورغ ؟ ثم شعرت بألمٍ في يدي وخلتها أصبحت مسكناً لحشرات صغيرةٍ فصرت أحركها بيدي الشمال حتى رجعت الى عادتها الاصلية والسبب في ذلك انها قد حملت رأسي عدة ساعات فتحذرت وأنا نايم فاستنتجت بذلك اني حي لان الوجع من علامات الحياة ولكن ما هذا الغناء الحزين الذي لا ازال أسمعه ؟ فنهضت من فراشي ورأيت مخدعي كما كان قبل النوم ونظرت مادام سيمون وابنتها نائمتين وفوق رأسيهما باقةٌ من الزهر فتذكرت حينئذ بانها عادة عند اليونان فانهم

يضعون أزهارًا في كل مخادعهم حين دخول الربيع فاذًا زهرة عين البقرة التي وجدتها انتني من عظمة الملك ولكن لم يزل صوت الترتيل يتبعني فصعدت السلم ودخلت مخدع الملك وشاهدت منظرًا أغرب من كل ما رأيته بالامس

فالراهب متشحًا بثيابه الدينية المزركشة يصلي القداس على هيكل مشيد تحت شجرة الصنور الملكية وسكارانا بالامس اصبحوا قديسين فالبعض واقفون والاخرون راكعون وكلهم يصلون بخشوع ديني لم اعهده في الكهنة والشبوقجي حامل صينية وهو ينادي

— اعملوا الخير من يعط الكنيسة يقرض الرب !

وكانت القروش تتساقط مثل البرد في الصحن وحالما دخلت سلم عليّ كل منهم بهدوء والحاج استافروس الذي كان تجاه الهيكل ترك لي محلاً بجانبه وكان ماسكا بيده كتابًا كبيرًا يرتل به بصوتٍ عالٍ فانه في مدة شبوبيته قد نال رتبة مرتل ولو ارتفع درجة اخرى لكان له قدرة على طرد الشياطين واوكد لك يا سيدي باني لست من اولئك المسافرين الذين يندهشون من كل شيء ولكن هذا الاحتفال أدهشني تمامًا لانه من يرى ركماتهم وصلواتهم يؤكد بانهم لا محالة قديسون ولكن انا ذلك الذي رأيت وعرفت أعمالهم لم أقدر إلا ان أقول لذاتي

— من يخدعون اذًا الآن ؟

وبعد الظهر بربع ساعة اختفى الهيكل ورجعت اللصوص الى الشرب ومعهم الشيخ المحترم وأخذني الحاج استافروس الى ناحية وسألني اذا لم اكتب فوعدته باني ساكتب حالاً فاعطاني قلمًا وحبرًا وورقًا فكتبت الى كريستوديل والى جان هاريس والى أبي

فترجيت كريستوديل بان يخبر صاحبه القديم بعدم مقدرتي على دفع الخمسة عشر الف فرنك

وكتبت الى جان هاريس بأني أعتمد على شجاعته فانه لا يترك صاحبه الا في

الضيق وقلت له اذا وجد انسان يقدر يخلصني فلا يكون سواك ولا أعلم كيف تعمل ولكني اتكل عليك من كل قلبي فاعمل كيفما تريد ولكن لا تضيع الوقت لاني أشعر بضعف رأسي واني لا محالة افقد حواسي قبل آخر الشهر

وكتبت الى ابي مثل عادتي في أول كل شهر لاني لم ارد ان احزنه فكتبت له اذًا بان صحتي جيدة واني قد سافرت الى الجبل وقد وجدت زهرة عين البقرة وصادفت انكليزية أجمل واغنى من الاميرة يسوف واني لم اقدر ان املك قلبها لعدم اتفاق وسائط ولكني اتأمل ان اقدم لها خدمة بأقرب فرصة ومع ذلك من يعلم فلربما أموت اعذب فوالحالة هذه يتوقف غنى عائلتنا على اخي فرانتز او على جان نقولا وانني اذا مت هنا بضربة غير منظورة اوكد لك يا ابي بان آخر فكري كان عندك !

وبالصدفة أتى الحاج ستافروس ورأى الدمع في عيني فقال لي :

— تشجع يا شاب فلم يأتِ الوقت لتندب نفسك فالسيدة الانكليزية قد كتبت مكتوبًا اذا ثمانية صفحات ومع ذلك لم تسقط دمعةً من عينها فاذهب وحادثها ولو كنت صاحب عقل لما بقيت اسيرًا ولكان فداك يدفع قبل يومين وأنا اعلم من يدفعه أمتزوج انت ام اعزب ؟

— انني اعزب

— ألم تفهم اذًا ؟ فارجع الى مخدعك فقد جعلت لك واسطة لتصير غنيًا هذا اذا عرفت ان تسلك واذا لم تعدني بين الذين صنعوا الخير معك تكون جاحد المعروف

فرجعت الى الغرفة ووجدت ماري آن وامها جالستين قرب النبع تشتغلان بثيابهما منتظرتين الخادمة الموعودة لان اللصوص اعطوهما مسلات وخيطانًا من القنب لاجل الخياطة ومن وقت الى آخر كانتا تنظران الى آثينا والى بيوتها وتتأسفان بأنهما قريبتان منها جدًا ولا يمكنهما الرجوع اليها الا بدفع المائة الف فرنك فسألتهما

— كيف نمتا ؟

فخشونة جوابيهما دلتني على انهما مستثقلتان مني وفي ذلك الوقت نظرت شعر ماري آن لاول مرة لانها كانت مكشوفة الرأس لتنشف شعرها الحريري والكستنادي اللون المسترسل على خديها وعلى كتفيها ولم يكن نازلاً كشعر بقية النساء الخارجات من الحمام بل محوجاً كسطح بحيرة يحركه الهواء فكأنه اطارٌ محيطة بوجهها الوردي واني لم احب أحداً كما اخبرتك ولكني في ذلك الوقت اردت تخليص شعرها من مخالب الحاج ستافروس ولو كان بحياتي وصرت افتكر لاجد طريقةً للهرب .

مخدعنا كان له منفذان الاول يقود الى مخدع الملك والثاني الى وهدة عميقة فالهرب من مخدع الملك كان ضرباً من المستحيل لان بعد المخدع ينبغي على الانسان ان يمر في معسكر اللصوص وبعدها في معسكر الكلاب المفترسة والهرب من الوهدة كان خطراً جداً والذي يزيده خطراً وجود الشلال فالنبع الخارج من غرفتنا كان ينزل من هذا الصخر المرتفع كان اذاً من المحال ايضاً نزول الانسان من هذا الصخر والمياهُ نازلةً على رأسه بدون ان يسقط فيموت .

ولكن الا توجد واسطة لتغيير مجرى المياه ؟ فبعد فحص المحل الذي كنا فيهِ عرفت من آثار الطين بأن مخدعنا ليس الا بحيرة نشفت بسبب زلزلة او بسبب اخر وحفرت اللصوص ترعة طولها عشر اقدام وعرضها ثلث اقدام لتقود مياه النبع الى الشلال ولسد هذا المجرى ينبغي شغل ساعة اخرى لينشف الطريق ولا يقتضي لنزولنا اكثر من ثلث ساعة وبعد ما تصير في اسفل الجبل تكون آثينا امامنا ونستعين بالنجوم لنذهب اليها بلى ان الطرق وعرة ولكن الركض لا يوافقنا لئلا يسمع أحد وقع أقدامنا فنمشي اذاً بهدوءٍ ولا نشعر هكذا برداءة الطرق وفي الصباح عند ما يأتي الملك ليستعلم كيف قد مضينا ليلتنا فيرى اننا مضيناها بالركض ويعلم حينئذ بأن الشلالات لا تمنع هرب الاسارى دائماً ويصير يتكل على نفسه

فمشروعي هذا ظهر لي عجيباً حتى اخبرت عنه التي كانت سبب افتكاري به

فماري آن ومادام سيمون كانتا تصغيان كما لو كانتا بحضور بوليس سري ولكن الفتاة الجميلة اقتربت من الوهدة وقالت

— يقدر الانسان على النزول من هنا ولكن بمساعدة ذراع متين فهل انت قوي يا سيدي ؟

فأجبتها بدون ان اعرف ما السبب

— بلى يا سيدتي هذا اذا كنت تثقين بي

— فهذ الكلام الذي لم اكن اقصد به سوى الظاهر اثر بها لانها احمرت قليلاً وقالت

— يمكن ان يكون قد حكمنا عليك باطلاً يا سيدي لان الحزن يعمي القلب ولكني اؤكد الآن بانك رجل صادق

وكانت تقدر ان تجد مدحاً آخر أوفق واحسن ولكنها قالت لي هذه الكلمات بصوت رقيق حتى تأثرت منه واعطتني يدها وحالما مددت أصابعي الخمس لاقبض عليها ضربت يدها على جبينها قائلة

— من أين تجد ما تمنع به مجرى الماء ؟

— العشب الذي تحت ارجلنا

— ولكن الماء يحمله

— لا قبل ساعتين فنكون قد نجونا وبعدنا فليأتي الطوفان

— حسن ؟

ومدت لي يدها فقربتها نحو فمي لاقبلها ولكنها سحبتها قائلةً

— هل افتكرت بحراسنا الذين لا يفارقونا لا ليلاً ولا نهاراً

لم افتكر بذلك ولكني قد تقدمت كثيراً حتى تأخر من مانع واحدٍ فاجبتها واندهشت انا ذاتي من جوابي

— أتعنين بذلك الكورفي ؟ فاني اربطه في الشجرة

— واذا صرخ ؟

— اقتلهُ

— ومن أين تأتي بالسلاح ؟

- اسرقهُ

فالسرقة والقتل اصبحتا عندي من الامور الطبيعية لما قاربت ان أقبل يدها فاحكم يا سيدي ما اعمل لو صرت عاشقاً

ومادام سيمون التي كانت مصغية اليَّ بالتفاتٍ كأن كلامي قد حسن لديها قالت لي

— طريقتك الثانية افضل من الاولى يا سيدي فمن أين تأتينا الجسارة بان نسلم الحاج استفاروس ماية الف فرنك ولو كان معنا الف وصل منه ؟ فأرجوك ان تكرر ما اعتمدت على فعله لتخليصنا

— سأستحصل هذا النهار على خنجر واللصوص اذ ينامون باكرًا لانهم تعابى انهض الساعة العاشرة واكتف حارسنا واسد فمه واقتله ان لزم الامر ذلك والساعة العاشرة ونصف اقلع خمسين قدماً مربعاً من العشب فتحملانه الى الترعة وهناك ابتدي بسدها ويلزم لذلك ساعة ونصف فيصير نصف الليل واشتغل ساعةً اخرى بتقوية الحاجز بينما الهواء ينشف الصخر ثم احمل السيدة ابنتك على يدي الشمال وانزل الى الهوة وامسك بذلك الغصن ومن هناك أذهب الى تلك التينة البرية وازحف طول هذه الساقية حتى نصل الى الصخور الحمراء فانزل الى الخندق وحينئذٍ نحن احرار

— حسن جداً ولكن انا ؟

فهذه الكلمة (انا) وقعت علي مثل دلو ماء بارد فاني قد نسيت تخليص مادام سيمون لان الصعود ثانية بدون السلم لتخليصها كان من المستحيل ولكن من أين تأتي بالسلم ففهمت مادام سيمون اضطرابي وأجابتني بشفقةٍ اكثر من غضب

— المشروعات العظيمة قد ينقصها شيء قليل فلا تتم فاسمح لي اذًا بان ابقى

على فكري القديم وهو انتظار الجنود لانني انكليزية واتكل جداً على النظام فاني اعرف عساكر آثينا وقد رأيتهم يتنزهون حول القصر وكلهم ابطال صناديد فسيخلصونا من بين مخاليب هؤلاء اللصوص

وبينما نحن في الكلام أتى الكورفي ومعه غانية حسناء يونانية اخذتها اللصوص من بين عريسها وامها فكانت تصرخ وتولول كل الطريق ولكنها لما فهمت بانها ستترك بعد خمسة عشر يوماً وان سيدفع لها مبلغاً من الغروش فرحت جداً فهنيئاً لبلاد تزول احزان اهلها بدفع الدراهم ! فهذه الخادمة لم تفد مادام سيمون شيئاً لانها لا تعرف من اشغال جنسها غير الزراعة ومن جهتي انا فقد جعلتني اتضجر من اكلها الثوم بغنجٍ ودلال كما يعملن سيدات هامبورغ باكل الملبس .

فمضى ذلك النهار بدون عوارض وثاني يوم ظهر لنا اطول من شهر الصوم فالكورفي لم يبعد عنا قدماً واحداً وماري آن وامها كانتا تفتشان في الافق على الجنود ولكنهما لم تنظرا احداً وأنا لكوني معتاداً على الشغل تضايقت جداً من البطالة وان يكن معي رخصة لاجول في الجبل برفق الحراس ولكن لا اعلم أي شيءٍ كان يلزمني البقاء بقرب ماري آن وامها وفي الليل لم أنم الا قليلاً لان طريقة الهرب لم تزل نصب عيني وقد نظرت ولاحظت اين يضع الكورفي خنجره حينما ينام ولكني توهمت باني ارتكب خطيةً لا تغفر اذا هربت بدون تخليص ماري آن معي .

ونهار السبت سمعت ضجيجاً قرب غرفة الملك فلبست برنيطتي فقط لاني كنت انام بثيابي وصعدت السلم فرأيت الملك واقفاً في نصف جيشه وكل اللصوص بالعدد الكاملة ومعهم عشرة صناديق محتوية على الذخائر الحربية ففهمت من ذلك بان الجيش على اهبة الحرب او الانتقال وكان الكورفي و باسيلي وسوفوكليس يتجادلون بصوت عالٍ ويتكلمون معاً بوقت واحدٍ وسمعت من بعيد عواء الكلاب ورأيت حارساً آتياً راكضاً نحو الملك وهو يصرخ باعلى صوتهِ الجنود ! الجنود !

الفصل الثامن

الجنود

لم يكن منظر الملك متأثرًا ولكن حاجبيهِ كانا مقرونين اكثر من حالتهما الطبيعية فسأل الآتي

— من أين آتون ؟

— من كاستيا

— كم فرقة ؟

— واحدة

— أيها ؟

— لا أعلم

— فلننتظر اذًا !

— ثم أتى آخر راكضًا فسأله الحاج استافروس حالما رآه

— أفرقة بيرليكليس الآتية ؟

لا اعلم يا سيدي لاني لا اعرف أقرأ العلامات

ثم سمع عن بعد صوت طلقٍ ناري

صهٍ كلكم ؟ صرخ الملك بعد ما اخذ ساعته بيده وصار ينظر اليها ولما سمع اربعة اطلاقات تبعت الاول من دقيقة الى اخرى وضع ساعته بجيبه وهو يتبسم وقال

— ارجعوا الذخائر الى محلاتها واحضروا لنا من نبيذ ارجين فهذه فرقة بيرليكليس

وقبلما انهى عبارته لمحني بين القوم فناداني بصوتٍ هزلي قائلاً

— ياسيدي الالماني من ينهض باكرًا يرى اشياء غريبة فستشرب قدحًا من خمر اوجين مع الجنود الابطال

ثم تقدمت اللصوص لملاقاة الجيش وقبل مرور خمس دقائق سمعت صوت الطبل ورأيت العلم الازرق وستين رجلاً بالعدد الكاملة دخلوا المخدع وعرفت منهم المسيو بريكليس لاني كنت قد رأيته قبلاً في منتزه باتيسيا وهو شاب في الخامسة والثلاثين اسمر اللون محبوب من السيدات بارع في فن الرقص شهير في البلاط وبعد ما اغمد سيفه ركض نحو ملك الجبال وقبله في فمه وقال له

— صباح الخير يا عرابي

— صباح الخير اجابه الملك بعد ما وضع يدهُ بلطفٍ على خدهِ كيف حالك؟

— الحمد لله وانت ؟

— كما تري والعائلة ؟

— عمي المطران محمومٌ

— احضره لهنا وانا اشفيه وهل تحسنت صحة ناظر البوليس ؟

— قليلاً وهو يهديك سلاماً جزيلاً منه ومن طرف الوزير

— ما هي الاخبار الجديدة ؟

— دعوة رقص في البلاط في الخامس عشر من هذا الشهر

— الا تزال ترقص ؟ كيف البورص ؟

— بهبوط

— حسن ! حسن ! أمعك تحاريز لي؟

— نعم وها كها وفوتين اذ لم تكن مستعده سترسل لك مكتوبها بالبوسطة

— قدح خمر ! على صحتك يا بني

— الله يطيل عمرك ومن هذا الغريب الذي يصغي الينا ؟

— الماني لا أهمية له . أتعرف شيئًا مما يفيدنا يابيريكليس ؟

— وزير المالية مرسل عشرين الف فرنك الى ارغوس وستمر الدراهم غدًا مساءً عن طريق الصخور السيرونيين

— سأذهب الى هناك ولكن هل يبقى ان آخذ معي كثيرين

— نعم لان فرقتين كاملتين تحرسان الصندوق

— وهل رجال هاتين الفرقتين شجعان ؟

— رجال لا يخافون الموت ولا يهابونه

— سأخذ اذاً كل رجالي ولكنك تحافظ على اسراي في مدة غيابي

— بكل سرور ولكن معي أوامر صارمة جداً لان الانكليزيتين كتبتا الى السفير وهما تطلبان العسكر جميعه لمساعدتهما ولتخليصهما فينبغي ان اكتب لايحتي محتوية على معركة دموية استقامت سبع ساعات

— سنتفق على ذلك

— حسن ولكن النصر يكون لي هذه المرة

— لا

— ولكني أريد ان اخذ نيشاناً

— ستأخذه غير مرة لانه لم يمر عليك سنة وانت قائمقام

ولكن انتصاري يوافقك لانه اذا سمع بانك غلبت وبان رجالك تشتتوا بتجدد الامان ويأتي المسافرون يتنزهون فنلقي القبض عليهم

كل ما قلته صحيح ولكني اذا غلبت يصعد البورص وانا اريد الهبوط

— بالاقل دعني اقتل لك عشرة رجال

— حسن ! وينبغي ان اقتل لك انا ايضاً عشرة عساكر

— وكيف ذلك ؟ فحال رجوعنا سترى فرقتنا كاملة

— لا لا ! لاني آخذهم منك لاني محتاج اليهم

— فاذاً اوصيك بسبيرو وهو ابن مدرسة زكي مهذب وهو لا يأخذ غير ثمانين فرنك شهرياً واذا بقي في الجيش فيلزم له عدة سنين حتى يصير ضابطاً ولكنه اذا اشتهر في معسكرك فستعينه الحكومة قبل ستة اشهر يتركك ويخدمها

— هل يعرف اللغة الافرنجية ؟

— قليلاً

— سأخذه وان اعجبني سأجعلهُ صاحب سهم فقد كسب السهم هذه السنة ٨٢ بالماية

— فاذاً اسهامي اعطتني واردات اكثر من معاشي اواه يا عرابي كم مصلحتي دنية !

— ما تريد ان افعل ؟ فلولا امك لكنت الآن لصاً ! بصحتك وبصحتك انت أيضاً يا سيدي الالماني اني اقدم لك فليوني القائمقام بيريكليس شاباً فريداً عارفاً بعدة لغات وهو يحرسك مدة غيابي وانت يا عزيزي بيريكليس اقدم لك الدوقنور وهو يساوي خمسة عشر الف فرنك وهل تقدر ان تفتكر بان هذا الدقتور العالم مع كل سعة معارفهِ لم يتوصل بان يجعل الانكليزيتين تدفعان فديته ؟ فالناس تتاخر يا أخي ففي ايامنا كان الرجال افهم وادري

ثم نهض بهدوٍ وذهب ليعطي اوامر الرحيل فكان يضحك ويمزح كما لو كان اصغر مما هو بعشرين سنة ولا أعلم ان كان سبب فرحه رؤية فليونهِ أم اهبتهُ لاجل المحاربة ولم اكن أظن قبل هذا بان رؤية الجنود هي الواسطة الوحيدة لتسلية اللص ولما أعلن باسيلي وسوفوكليس والكورفي وبقية الضباط ارادة الملك في المعسكر حالاً كانت اللصوص مستعدة للذهاب والشاب سبيرو مع تسعة رجال آخرين انتخبوا من بني العسكر اليوناني غيروا ثيابهم ولبسوا مثل اللصوص ولم أرَ على وجوههم أدنى علامة من التأسف على حالتهم القديمة لا بل الذين بقوا تحت العلم اليوناني صاروا يتذمرون فالقدماء منهم كانوا يقولون

— ان الانتخاب لم يتم جيداً لان الذين انتخبوا لم يعتبروا حق القدم

والبعض قالوا

— من كوننا دخلنا قبلاً في سلك اللصوصية فنحن أحق من الذين انتخبوا

ولكن القائمقام أوقف تذمراتهم بقوله

— سيأتي دور الجميع

وبعد ما اعطى الحاج استافروس كل المفاتيح لبيريكليس اراهُ محل النبيذ ومحل الطحين ولما اعطاه التعليمات الضرورية لمنع هربنا اجابهُ بيريكليس وهو يتبسم

— لا تخف فانني صاحب سهم

وعند الساعة السابعة ذهب الملك ورجالهُ وراه الواحد بعد الآخر نحو الشمال تاركين وراءهم الصخور السيرونيين ثم رجعوا بطريق آخر متسع من تحت مخدعنا ومشوا قليلاً في مياه الشلال وهم يغنون البيتين المتقدم ذكرهما في أول الكتاب وهما

« حورية نزلت والسعد يتبعها » الخ

الفصل التاسع

فمادام سيمون التي لم تكن تحلم إلاَّ بالجنود استيقظت من استماع وقع الاقدام وركضت نحو الشباك أي الشلال وعرفت بين القوم الملك والكورفي وعدة آخرين فانبهرت من كثرتهم وعدت منهم ستين رجلاً وقالت

— لم يبق لحراستنا إلاَّ عشرون رجلاً

ولكن بعد برهة نظرت المؤخرة تتقدم فعدت منها عشرين رجلاً ونادت باعلى صوتها

— ماري آن ! لقد اطلق سبيلنا

ولكن الجيش لم يزل متتابعاً فاللصوص كانوا ثمانين وذهب منهم تسعون فماري آن لما سمعت صوت امها خرجت الى خارج الخيمة

— ذهبوا كلهم ! صرخت مادام سيمون ماذا قلت ؟ كلهم ؟ لقد ذهب منهم

اكثر مما كان موجوداً ! هيا فلنركض يا ابنتي

فركضتا نحو السلم ونظرتا العسكر اليوناني حالاً محل الملك والعلم اليوناني منصوباً في قمة شجر الصنوبر وتقدمت مادام سيمون من بيريكليس وقالت له بفرح عظيم

— هل ذهبت اللصوص يا ملاك الرب ؟

— نعم يا سيدتي أجابها بالانكليزية

— وهل انت الذي هزمتهم ؟

— لولا نحن لبقوا هنا

— حسناً فعلت يا بطل اليونان وهل كانت المعركة دموية ؟

— لا فبكلمة واحدة جعلتهم يذهبون

— نحن احرار اذاً ؟

— لا شك بذلك

— متى نقدر نرجع الى آتينا

— حينما نريد

— هلم بنا اذاً الآن

— مستحيل

— ولمَ ؟

— ينبغي علينا قبلاً ان نعمل وجباتنا فنحرس محل الموقعة

— يا ماري آن ! اغمزي يد المسيو

فاطاعت الفتاة الانكليزية امها

— يا سيدي قالت له مادام سيمون ان الله ارسلك لتخليصنا فقد اضعنا كل امل والمدافع الوحيد عنا هو شاب الماني من الهيئة الاجتماعية الوسطى عالم بالنبات وقد كان يريد ان يخلصنا بطرق مستحيلة حينما اتيت انت ولقد كنت متاكدة بان الجنود ستخلصنا اما هكذا يا ماري آن ؟

— بلى يا اماه

— واعلم يا مسيو بان اللصوص هم احقر الناس فانهم ابتدأوا باخذ كل ما معنا

— كلهُ ؟

— ما عدا ساعتي التي اخفيتها

— حسناً فعلتِ ! وهل ابقوا معهم كل ما اخذوه منك ؟

— لا فانهم ارجعوا لنا ثلاثمائة فرنك وعلبة فضية وساعة ابنتي

— وهل عندكِ كل هذه الاشياء ؟

— نعم

— هل اخذوا أيضاً خواتمكما واقراطكما ؟

— لا يا سيدي

— ارجوكِ بان تعطيني اياهما

— أي شيء أعطيك ؟

— خواتمكما واقراطكما وعلبة صغيرة فضية وساعتين ومبلغ ثلاثمائة فرنك

— ماذا تقول ؟ أتريد ان تأخذ منا ما ارجعته لنا اللصوص ؟

— من بعض واجباي ان اجمع كل الاشياء اللازمة لدعوى الحاج استافروس

— أهو مزمعٌ ان يحاكم

— حالما يؤخذ يحاكم

— ولكن على ما اظن جواهري ودراهمي لا تفيد شيئاً وعندكم براهين عديدة مما تكفي لشنقه أولاً انهُ أوقف وسلب انكليزيتين اما يكفي ؟

— ولكن يا سيدتي ينبغي الاطاعة لاوامر العدلية

— ولكن بين الاشياء التي تطلبها مني يوجد مما لا أقدر ان استغني عنه

— فأتمنيني اذاً عليه

— ولكن اذا لم يكن معي ساعة لا أقدر ان اعرف.....

— ياسيدتي انني مستعد دائماً ان اخبرك كم تكون الساعة

ولما قالت ماري آن انه يشق عليها الاستغناء عن اقراطها أجابها بلياقةٍ

— انك جميلة يا سيدتي بدون الجواهر فنقدرين ان تستغني عن جواهرك اكثر مما جواهرك تقدر ان تستغنى عنكِ فارجوكِ اذاً ان لا تحركي بي الاشمئزاز بسلب سيدتين ممتازتين ولكنا نحن العساكر عبيد للتعليمات وآلة الشريعة ورجال الواجبات فتنازلي اذاً واقبلي ذراعي فنذهب الى المخدع حيث نكتب قائمة بقيمة الموجود معكما

فلم اطق ولا حرفاً من هذا الخطاب وصبرت الى الآخر ولكن لما رأيت هذا الرجل يقدم ذراعهُ الى ماري آن شعرت بحماسة الغضب وتقدمت اليه لاظهر افعاله ولكنه فهم ذلك فنظر اليَّ نظرة تهديدية وترك السيدتين عند السلم ووضع عندهما حارساً ورجع اليَّ قائلاً

— هلم ! نحن الاثنان !

وادخلني بدون ان يتلفظ ولا بكلمة الى مخدع الملك حيث جلس ازائي وبعد ما تفرس بي قليلاً من الزمان سألني

— هل تعرف اللغة الانكليزية يا سيدي ؟

— نعم

— واليونانية ؟

— نعم

— نعماً لك فانك عالم شهير ! فعرابي ملك الجبال يتكلم امام جميع الناس بحرية لانه لا يرهب احداً وأما انا فمركزي ضعيف لاني لست غنياً وراتبي هو تقريباً كل دخلي فاذا تكلم عني مسافر نظيرك بما يعرفه فيفقدني ثلثي غناي

— وهل تظن باني ساستر رذايلك

— عند ما اظن لا اغلط الا نادراً ولست ادري اذا كنت تخرج حياً من هذه

الجبال اذا لم تدفع فديتك فان قطع عنقك اطمأن لانك لا تقدر ان تعلن ما تعرفه ولكن اذا رجعت الى آثينا فانصحك نصيحة مخلص ان تكتم كلما نظرته وانت اعرف مني المثل السايرِ اللسان آفة الانسان فافتكر بذلك ولا تعرض ذاتك للخطر

— ان التهديد مما . . . . . .

— لا اهددك يا سيدي فاني لا اهدد مطلقاً ولكني احذرك فاذا تكلمت عليَّ فلست انا الذي انتقم لذاتي ولكن كل رجال فرقتي وهم عديمو الشفقة خصوصاً مع الذي يسبب ما يكدرني فانهم يعبدونني عبادة حقيقيه

— فما تخاف اذاً اذا كان معك كل هؤلاء الارفاق ؟

— لا أخاف من اليونان لانه اذا اشتكت على الاعداء فيوجد بينهم من يسعفني وينجدني ولكن تداخل الاجانب يضربي فاذا أصابتني أذية بسببك فانك تتعرض لخطرعظيم ففي المملكة لايمشي الانسان خطوتين الا ويصادف جندياً وكلهم كما أخبرتك .

— حسن يا سيدي سأفتكر بذلك

— أتعدني كتمان السر ؟

— لستَ ملزوماً أن تسألني ولستُ ملزوماً أن أعدك فانك تحذرني من خطر عظيم اذا أعلنت اعمالك فسأفتكر بهِ

— حينما تذهب الى المانيا تكلم وحدث واطبع واكتب كلما يحسن لديك فكل ذا لا يهمني فالكتب التي تنشر ضدنا لا تؤذي أحداً وان أخرَّت فتبندي بموَّلفيها وانك حرٌ بتجربة ذلك فاذا كتبت كلما رأيتهُ حقيقةً تقول عنك أهالي اوروبا بانك تلبث حيث شعب قديم مشهور ويقولون عنك بأنك جاحد المعروف وبأنك كنت ضيفاً عند الحاج ستافروس وليس أسيراً ولكن لا أحد يصدقك في ما قلتهُ لانهم لا يصدقون الا الاشياء الموافقة والمطابقة بعضها لبعض . اذهب واقنع أهالي باريس وأهالي لوندرا أو برلين بانك رأيت قائد عسكر يعانق رئيس قطاعي الطرق !

أو أن فرقةً من العساكر تحرس أسرى الحاج ستافروس الذي ذهب يسلب صندوق

أموال الدولة ! أو ان اعظم المشتركين بالسهام أسسوا جمعيةً لسلب المسافرين ! فان ذلك عسرٌ أكثر مما لو أردت اقناعهم بان جرذان اليونان اتفقت مع الهررة وان غنمنا يفتش على مرعاهُ بين أنياب الذئاب فمن حسن حظنا كل ما يكتب عنا من الصحيح يصعب تصديقهُ فانني أقدر أن اذكرلك اسم كتابٍ خدنا قراءتهُ من جميع جهات الدنيا ومع ذلك لا أعرف بلدةً وجدتهُ صادقاً الا آثينا فلا تكتب مجلداً آخر نظيرهُ قبلما تكون خارج المملكةِ والا فأنت الجاني على حتفك بظلفك .

— ولكن اذا سمعت كلاماً قبل رحيلي ومن اين تعلم بأني أنا قائله ؟

— انك الشخص الوحيد العارف بسري فالانكليزيتان مقتنعتات باني مخلصهما واني أقدر أن أتركهما في الضلال لحين رجوع الملك الذي يكون هنا غالباً أو مغلوباً ظافراً أو مهزوماً الاثنين صباحاً ووقتئذٍ يسهل عليَّ جداً اقناع الاسيرتين بأن اللصوص هجمت علينا بغتةً ولكي لا تتكلم بهذا الخصوص مع السيدتين فانني أحميك ضد نفسك بابعادك عنهما في كل مدة غياب عرابي فسأستعير منك خيمتك أولاً لان جلدي ارق وانعم من جلد الحاج ستافروس ولا أريد أن يقال عني في الخامس عشر من هذا الشهر في حفلة الرقص في البلاط بأني أسمر اللون كفلاح وثانياً لان من واجباتي عدم مفارقة السيدتين بكوني مخلصهما وأما انت فستنام بين عساكري واسمح لي الآن أن أعطي أمراً لاجلك . يني ! يا يني الخيال ! اني أسلمك يني حراسة هذا المسيو فضع حولهُ اربع حراس لا يفارقونهُ لا ليلاً ولا نهاراً ويتبعونهُ حينما يذهب ويصير تغييرهم كل ساعتين

وبعد ما سلم عليَّ بادبٍ هزلي دخل مخدع السيدتين وهو يردد بعض الاغاني اليونانية ومن تلك اللحظة ابتدأتُ بعذابٍ لا يقدر العقل البشري على تصوّرهِ فكل انسان يعرف او يحزر ما هو السجن ولكن ليفتكر بسجنٍ حيٍّ متحرك ذي أربعة حيطان يأتون ويذهبون يبعدون ويقتربون ويدورون ويدركون أياديهم ويتخطون وينظرون دائماً بثماني أعين سود الى اسيرهم . فأردت ان اتنزه وحالاً سجني صار يمشي

حولي حتى وصلت الى حدود المسكر فالمذان كانا امامي وقفاً وأنا على غير انتباه فصدم رأسي بثيابهما ونظرت الى جانبي فرأيت منقوشاً هاتين الكلمتين « حدود المسكر » كلمتين لم اكن أفهم قبلاً ما القصد منهما فرجعت والاربع حيطان رجعوا معاً ايذائي واذ تعبت من هذه الحالة جلست على بلاطة هناك وابتدأ سجني يدور حولي فكنت كسكرانٍ يرى بينهِ دائرًا حولهُ فأغمضت عيني ولكن وقع اقدامهم لم يزل يتبعني فافتكرت بأن اكلمهم ولربما يجاوبوني فأبتدأت أناديهم باللغة اليونانية فذهب كلامي ادراج الرياح فالحيطان وان يكن لها آذان ولكن الصوت ممنوع عنها فالجندي لا يتكلم وهو تحت السلاح فقصدت ان أطغيهم وسحبت من جيبي كيس الدراهم الذي ارجعه اليَّ الحاج ستافروس والذي لم يدرِ بهِ القائد ليسلبهُ مني وفرقتهُ الى أربع جهات مخدعي فتغيرت حينئذٍ هيئة الحراس وصاروا يتبسمون ولكن بعد خمس دقائق أتى الخيال يني وغير الحيطان فكان قد مضى ساعتان وأنا تحت الحفظ فظهر لي النهار أزلياً والليل أبدياً فالقائمقام استولى على فرشتي وخيمتي وتركني انام على الصخر حيث المطر القليل والهواء البارد جعلاني اعترف بان السقف اختراع عظيم وان صانعي الاغطية يقدمون خدمات لا تنكر للهيئة الاجتماعية ولم اقدر ان انام كل ذلك الليل لانه وان اثفق باني اغمضت عيني فكنت استيقظ من صوت الخيال يني الذي كان يأتي ويأمر بتغيير الحراس وزيادة على ذلك كنت افتكر كل الوقت بان يد ماري آن موضوعةً في يد مخلصها فآه يا سيدي كم قلت عن ملك الجبال بانه عادل ! وكم ارجعت اللعنات التي قلتها ضدهُ ! وكم تأسفت على حكمه اللطيف والابوي ! وكم تنهدت متمنياً رجوعه وكم تضرعت الى الله لاجله في صلواتي قائلاً

— يا الهي انصر عبدك الحاج استافروس واكسر امامه شر كسرة كل عساكر المملكة وضع بين يديه الصندوق وكل دراهم هذا العسكر الجهنمي وارسل لنا سريعاً اللصوص لنخلص من بين ايادي الجنود !

وحالما انتهيت من هذا الدعاء سمعت صوت اطلاق البنادق وبعد برهةٍ تجدد الاطلاق فعرفت انها حيلة أيضاً من المسيو بير يكليس يخدع مادام سيمون فانه كان يأمر عساكره بالتمرين من وقتٍ الى آخر ليوهمها بانهُ يحارب اللصوص ولكن هذا التمرين كاد يكلفه اتعاباً شتى لان اللصوص حينما رجعوا صباح الاثنين ظنوا بوجود اعداء حقيقية واطلقوا عدة رصاصات ولكن لسوء الحظ لم تصب احداً

وهذه هي المرة الاولى التي رأيت فيها جيشاً مكسوراً فالله لم يستجب دعائي لان العساكر اليونانية دافعت بكل ثبات حتى دامت المعركة الى الليل ولما رأى الحاج ستافروس انه لا يقدر على أخذ الصندوق باطلاق الرصاص هجم عليهم بالسلاح الابيض وصنع اعمالاً عجيبة ولكن الحربة أخذت مفعولها فالجيش قتل اربعة عشر لصاً وكلباً وبينهم سبيرو ذلك الشاب المتكل على مستقبله فرأيت ستين رجلاً غارقين بالدماء والغبار على وجوههم وثيابهم واكثرهم جرحى وسوفوكليس الذي أصيب برصاصة كان محمولاً وبقي الكورفي وآخرون غيره على الطريق فكل اللصوص كانت في يأسٍ عظيم وخصوصاً سوفوكليس الذي كان يئس من الوجع والكدر وسمعت بعض تذمرات على افعال الملك الذي عرَّض حياة رفقائه لاجل قيمة زهيدة عوضاً عن ان يسلب أموال المسافرين الاغنياء الذين لا يحتاجون الى معارك .

والملك كان الشخص الوحيد المتبسم الضاحك المستريح والمبسوط فعرفني حالاً ومد يده نحوي قائلاً

— انك ترى امامك ملكاً منهزماً فهؤلاء العساكر الانذال لم يتركوا الصندوق لانه من مالهم الخاص فلو كان لغيرهم لاخذناه فسفري هذا الى الصخور السيرونيين لم يفدني شيئاً لا بل كلفني حياة اربعة عشر مقاتلاً عدا المجاريح التي لا تشفى ولكن مع ذلك كنت مسروراً فقد حاربت جيداً فهذا النهار اعاد لي قوة الشباب وقد برهنت لذاتي بان لا يزال دم حارٌ في عروقي فسيقولون في تاريخي أيضاً باني في سن السبعين هجمت على فرقتين من الجيش بضرب السيف وقتلت منهم بيدي ثلاثة أو

اربعة عساكر ثم رجعت مسافة عشر فراسخ ماشياً لاشرب قهوتي ياقهوجي ! اعمل واجباتك اين بير يكليس ياترى ؟

فركض يني وايقظ القائد اللطيف المهذب الذي كان نائماً في خيمته واتى به بثياب النوم ولما عرف المسيو بير يكليس بان سبيرو وعسكريين آخرين بقوا في ارض الموقعة ابتدأ يمزق محرمته ولولا محبته لشخصه لنتف شعره وصرخ قائلاً

— كل الحق عليَّ ! كيف اقدر ان أقول عن سبب وجودهم بينكم و بزي اللصوص أيضاً ؟فلا محالة قدعرفتهم العساكر من بين القتلى ! هل اقول انهم هربوا مني ودخلوا في عصبتكم ؟ أو انكم اخذتموهم اسارى ؟ فسأسأل لماذا لم اخبرهم اذاً عن ذلك في لائحتي التي كتبتها البارحة مساء وقلت بها انني اضايقك قرب البارنيس وان كل رجالي ابطال قد اشتهروا في المعارك ! يا الهي لا عدت اتجاسر ان اظهر نهار الاحد في منتزه يانيسيا ! ماذا يقال عني في الخامس عشر من هذا الشهر في دعوة الرقص في البلاط ؟ ستتكلم عني كل الناس يا الهي ! يا الهي ! فلو لم يكن غير مسئلة هاتين الانكليزيتين لكنت اخبرت وزير الحرب بالواقع ولكن اعطائي عساكري لتحارب رفقاءهم ولتخلصهم صندوق الخزينة ! سيشار اليَّ بالاصابع ولا اتجاسر ان ارقص

فمن ذا الذي كان يفرك بايديه عند استماع هذا الكلام ؟ ابن ابي بين اربع حيطان من العساكر أما الحاج استافروس الذي كان يشرب قهوته فبكل هدوء أجاب فيلونة

— ابق عندي وأنا اعطيك دخلاً لا ينقص عن عشرة آلاف فرنك سنوياً وأعين كل رجالك في مراكز مهمة

فلو أعطيت هذه التقدمة منذ يومين لقبلها الجميع ولكن في الوقت الحاضر لم تسر احداً والعساكر لم تلفظ ولا كلمة بل صارت تنظر الى آثينا كالواردات ان تكون داخلها والمسيو بير يكليس اجاب وعلامات القلق والاضطراب ظاهرة على وجهه

— شكراً لك ياعرابي ولكن ببتغي لي مدة لا تأمل فصحتي نحيفة و برد الشتاء قارص جداً في الجبال وها اني الآن قد زكمت واذا اتيت اليك فسيفتش عليَّ في كل الاحتفالات لاني مشهور وكل الناس تعرفني ومع ذلك من يعرف ؟ فلربما لم يحدث ما كنا مفتكرين به ؟ من يعرف اذا كانت العساكر عرفت سبيرو ورفيقيه؟ومن يعرف اذا وصل الخبر قبلنا الى آثينا ؟ فاني أذهب حالاً الى الوزارة وادبر المسئلة ولا يقدر أحد ان يناقض هناك كلامي لان الفرقتين ذاهبتان الى ارغوس فاعتن اذاً بجرحاك واستودعك الله !

والتفت نحو الطبال وقال له

— هيا بنا ياغلام

فاتى الحاج ستافروس ومعه فيلونة وقال لي

— ياسيدي انظر يوناني العصر الحالي وانا يوناني العصر القديم والجرائد تقول اننا في تقدم !!!

الفصل العاشر

وحالما ضربت الطبول وابتعدت عني حيطان سجني ذهبت ركضاً الى خيمة ماري آن ولما رأتني مادام سيمون صرخت

— هل نذهب ؟

— لا يا سيدتي

— لمَ لا ؟ فالقائمقام قد اعطانا كلاماً لاجل هذا اليوم

— كيف وجدت القائد يا سيدتي ؟

— ظريف لطيف مهذب أديب أنيس .....

— لا بالعكس فانه رذيل قليل الادب حيوان لص وأنا ابرهن لك على ذلك

— ولكن ما عملت لك الجنود يا ترى ؟

وحالما وصلت مادام سيمون رأت العساكر ذاهبة والطبل امام الكل واللصوص قد استولت على مراكزهم والقائمقام يعانق الملك ويقبله قبلة الوداع فاغمى عليها من شدة الاندهاش وسقطت على ذراعي فحملتها الى النبع وصارت ماري آن تفرك يديها وجسمها بينما رششت وجهها بالماء ولما استيقظت صرخت

— يا للتعاسة !

— لقد سلبكما يا سيدتي وأخذ ساعتيكما ودراهمكما اما صحيح ؟

— لا اتأسف على دراهمي وجواهري بل على شد الايدي التي سمحت له بها فانني انكليزية ولا اهزيد كل انسان

فهذا التأسف جعلني اتنهد من صميم فؤادي وابتدأت مادام سيمون تسقط صواعق غضبها عليَّ وقالت لي

— كل الذنب عليك اما كان الواجب عليك ان تقول لي بان اللصوص قديسون بالنسبة الى الجنود ؟

— ولكن يا سيدتي ألم اقل لك بانه لا ينبغي الاتكال على الجنود ؟

— نعم قد قلت لي ولكن بكل برودة و بساطة فهل كنت قادرة على تصديقك ؟

— هل كنت أقدر اظن ان هذا الرجل سجان عند الحاج ستافروس ؟ أو انه يحرسنا منتظرًا رجوع اللصوص ؟ وهل كنت اقدر اظن بانه يظهر لنا بكونه محاصرًا ليرينا شجاعته ؟ أو انه يتظاهر بمعارك دموية في الليل للذود عن انفسنا ؟ فالآن قد عرفت كل شيء ولكن كان من الواجب عليك ان تقول لي كل هذا

— حتمًا يا سيدتي قد قلت لك كلما كنت اعرفه وقد عملت كلما اقدر عليه

— أواه منك يا الماني ! لو كان انكليزي عوضك لقتل نفسه لاجلنا ولكنت اعطيه ابنتي !!!

فصرت أشد احمرارًا من الشفق عندما سمعت كلام مادام سيمون واضطربت

اضطرابًا شديدًا حتى لم أتجاسر ان انهض عيني ولا ان اجاوب ولا ان أسأل مادام سيمون ماذا تقصد بكلامها هذا لاني لم اكن أقدر ان أفهم كيف ان امرأة مثلها تتكلم هكذا امام ابنتها وامامي ؟ ومن أي باب ولاي سبب دخل موضوع الزيجة في عقلها ؟ وهل يا ترى مادام سيمون تعطي ابنتها جائزة لمن يخلصها ؟ ومن كون ظواهرها لا تدل على ذلك استنتجت بان في فكرها ان تهزأ بي ومن كوني لم اكن أشعر بخوف ولا بامال ولا بشيء آخر من دلائل الحب ولا بخفقان قلبي كما يقال عن العاشق فكنت اذًا غير عاشق لماري آن واقدر ان امشي منتصب الرأس لا ارهب أحدًا ولكن لربما مادام سيمون التي لا تعرف افكاري قد خدعتها الظواهر فمن يدري اذا لم تكن تظن بي عاشقًا لابنتها ؟ وشعرت بالغضب حالما افتكرت بان ظنها هكذا واجبتها بصوت جسور ولكن بدون ان انظر اليها

— تأكدي يا سيدتي بانه اذا وافقتني التقادير وخلصتك من هنا فلا يكون ذلك بقصد تزوج ابنتك

— لِمَ لا ؟ اجابتني بصوت متأثر هل يا ترى لا تستحق ابنتي الزيجة ؟ أم هل هي من عائلة غير شريفة أو قليلة التهذيب ؟ أليست ظريفة وغنية ؟ وهل تعرف شيئًا مما يشوبها أو يهينها ؟ فمن يتزوج مادموازيل سيمون يكون لا محالة مسعود الطالع

— وأسفاه يا سيدتي ! انك لم تفهمي كلامي فاني اقر وأوكد بان المدموازيل عديمة الشبيه ولا ينقصها شيء ولولا حضورها هنا لكنت اخبرك عن الاحساسات والعواطف التي تتحرك بي حين رؤياها ولكني لا اتجاسر على الظن باني استحقها

وتأملت ان خضوعي هذا يلين مادام سيمون ولكن غضبها لم ينقص ولا نصف درجة

— لماذا لا تستحق ابنتي ؟ أجب ! فه ! تكلم ! قل ! اخبر !

— لاني فقير واست بصاحب رتبة

— من جهة الرتبة فاذا تزوجت ابنتي اما تكفيك هذه الرتبة بان تكون حميّ ؟ ومن جهة الغنى متى يا ترى طلبنا منك دراهم ؟ ألا يوجد عندنا ما يكفيك ويكفينا ويكفي كثيرين آخرين ؟ ومع ذلك الرجل الذي يخلصنا من هنا يكون قد قدّم لنا هدية ماية الف فرنك نعم ان هذا المبلغ قليل ولكنه احسن من لا شيء وهل تقدر تقول بالنسبة لحالك ان ماية الف فرنكاً مبلغ زهيد ؟ فاذاً لماذا لا تستحق ابنتي ؟

— لاني لست .....

— لست أي شيء ؟ لست انكليزياً ؟

— نعم

— هل تظن باننا بهذا المقدار اغبياء حتى نجعل ولادتك ذنباً عليك ؟ فيا سيدي ليس معطي لكل انسان ان يكون انكليزياً فالارض كلها لا تقدر ان تكون انكليزية ... بالاقل قبل بضع سنين ولكن يقدر ان يكون الانسان شريفاً مستقيماً عاقلاً بدون ان يخلق في انكلترا

— من جهة الشرف والاستقامة فهذه اخلاق نورثها اباً عن جد ومن جهة العقل فان عندي منه ما جعلني دوقنوراً ولكن لسوء الحظ شخصي ليس.....

— اتريد ان تعني بكلامك انك شنيع ؟ لا يا سيدي فهيئتك تدل على الذكاء اما هكذا يا ماري آن ؟

— بلى يا امي ! اجابتها ماري آن وان احمرت قليلاً عند قولها هاتين الكلمتين فانها تعرف ذلك اكثر مني لان عينيّ كانتا مسمرتين في الارض

— ومع ذلك قلت مادام سيمون لو كنت اشنع مما انت بعشر اضعاف فانك لا تشبه بالمرحوم زوجي ومع ذلك ارجوك ان تتأكد بانني لم اكن اردأ من ابنتي حينما اعطيته يدي وما تجاوب على هذا ؟

— لا شيء يا سيدتي وأحب ما عندي ان اراك غداً على طريق اتينا

— فتش اذاً على واسطة تكون اسهل من واسطه ذلك اليوم

— اتأمل باني ارضيك اذا سمعت كلامي كله

— قل يا سيدي

— لا تقاطعي كلامي

— لا وهل يا ترى قاطعتك مرةً ما ؟

— نعم

— لا

— بلى

— متى

ابداً ! يا سيدتي ان كل اموال الحاج ستافروس موضوعة عند الخواجات بارلي وشركاه

— عندنا ؟

— كافنديش سكوير ٣١ في لوندرا فنهار الاربعاء الاخير أملى مكتوباً امامي بعنوان الخواجات بارلي

— ولِمَ لم تقل لي هذا قبلاً ؟

— ما كنت تصبرين لاكلمك

— سلوكك لا يعبر عنهُ يا سيدي فكنا نكون بحرية منذ ستة أيام فاكون قد ذهبت عنده واخبرته عن علاقاتنا .....

— فيطلب منك ماينين أو ثلاث ماية الف فرنك فان السكوت عن ذلك اوفق فادفعي الفدية بعد اخذ وصل منه وأرسلي له الحساب بعد خمسة عشر يوماً مع الملاحظة الآتية : ماية الف فرنك تسلمت يداً بيد لشريكتنا مادام سيمون بعد أخذ الوصل منها وتقبيده : وبهذه الواسطة تكونين قد استرجعتِ دراهمك بدون مساعدة الجنود

— فرفعت عينيّ ونظرت ماري آن تتبسم تبسم الشكر ولكن امها قالت لي

بعد ما هزت اكتافها

- بالواقع انك يا سيدي غريب الاطوار فانك اتيت تشير الينا بطريقة للهرب لا يقبلها العقل السليم وعندك هذه الواسطة السهلة ؟ وكيف لم تخبرنا بها قبلاً مع انك تعرفها من نهار الاربعاء ؟ فاني لا اسامحك ابداً لانك لم تخبرني بها من أول يوم

— ألم اقل لك بان تكتبي الى اخيك بارسال ماية وخمسة عشر الف فرنك ؟

— ولِمَ ماية وخمسة عشر الف ؟

— لا لا قد غلطت فاردت ان أقول ماية الف فقط

— لا يا سيدي ينبغي ان اكتب له لاجل ماية وخمسة عشر الف فرنك ولكن هل تظن بان هذا الستافروس يتركنا حالما يقبض الدراهم

— لا اظن بل اوكد ذلك لان اللصوص هم الوحيدون الذين لا يخلفون بكلامهم فانهم لو ابقوا شخصاً بعد اخذ فديته فلا يعود أحد يدفع

— صحيح ولكن لِمَ لم تتكلم لحد اليوم ؟

— كنت دائماً تقاطعين كلامي

— من اللازم ان تتكلم ولو قاطعته

— ولكن يا سيدتي.....

— اسكت وخذني الآن عند هذا الملعون الحاج ستافروس

وكان الملك جالساً في ظل شجرته يأكل لحم اليمام بعد ما غسل يديه من الدماء وغير ثيابه وأتم زينته وحوله الضباط ياكلون معه وكان يفتش مع ضيوفه على واسطة لسد النقص الذي سبب له موت رفقائه فياسيلي اشار عليه ان يجمع ثلثين رجلاً من الايبيريس ولاكوني أشار عليه بمشترى عصبة يافلوس بالدراهم وهي التي تقطع الطرق في نواحي كالاماني ولكن الملك ابدى فكره بانه يزيد عساكره بأخذ الرعاة بالقوة فهذا الرأي هو الاصوب لانه زيادة عن الرجال فانه يكسب المواشي

فلاقانا الحاج استافروس بكل برودة وحيث كان الكورفي غائباً التزم ان يقبلني نظير ترجمان فاخذت ان اتكلم عن الانكليزيتين وقلت له

— من بعد انهزام الصباح ستسر يا سيدي لان مادام سيمون اعتمدت على دفع فديتها وفديتي ايضاً وحسب ارادتك ستدفع الدراهم غداً الى البنك الذي تعينه لها وذلك بعد اخذ الوصل

— لقد سررت من كون هاتين الامرأتين قد عدلتا عن طلب الجيش اليوناني لمساعدتهما فقل لهما باني ساعطيهما أوراقاً واقلاماً ولكن حذار من طلب العساكر فانني وحق العذراء التي حورها القديس لوقا اقطع رأسيهما حالما ارى عسكرياً آتياً

— اين تريد ان توضع الدراهم ؟

— في بنك اليونان الوطني وهو البنك الوحيد الذي لم يفلس بعد في آثينا

— أعندك رجل أمين لاخذ المكتوب ؟

— عندي الشيخ المحترم . كم الساعة الآن ؟

— التاسعة صباحاً

— لا اظنه يكون سكراناً بعد فيقدر اذاً على اخذ المكتوب

— حسن فحالما يدفع اخ مادام سيمون المبلغ ويأخذ وصلك يرجع الراهب لهنا ويخبرك بذلك

— اي وصل ؟ ولماذا الوصل ؟ فاني لم اعطِ وصلاً واحداً قط كل حياتي فعندما تراكم الناس احراراً تعلم بانكم قد دفعتم ما يجب عليكم دفعهُ

— لقد كنت اظن ان رجلاً مثلك يرتب الاشغال كما في اوروبا ففي ادارة منظمة حالما .....

— اني انظم الاشغال كما اريد وقد صرت شيخاً فلا اريد ان اغير عوائدي

— لقد طلبت منك ذلك لاجل مادام سيمون فانها وصية على ابنتها وينبغي ان تقدم لها الحساب حين بلوغها سن الكمال

— فاترتب حالها ؛ فان اشغالها لا تهمني اكثر مما تهمها اشغالي فلتدفع عن ابنتها فانني ادفع بدون تأسف كلما يلزم لفوتين فهوذا الاقلام والحبر والورق وبعد كتابة التحرير اقرأه لانك انت ايضاً مسئول عنهُ

فنهضت مأيوساً ولما تبعت السيدتين اللتين عرفتا اضطرابي بدون معرفة السبب أتاني فكر غريب فرجعت نحو الملك وقلت لهُ

— حسناً فعلت بعدم اعطائك وصلاً وقد اخطأت بطلبه منك فانك احكم واعقل مني

— ما معنى كلامك ؟

— ينبغي على الانسان ان ينتظر كل شيء فلربما غُلبت مرةً اخرى ووقعت حياً بين ايدي العساكر

— انا ؟

— فتقام عليك الدعوى كاصٍ فوصل بماية وخمسة عشر الف فرنك يضرك جداً بوقتها لان القضاة لا تعود تهابك فلا تعطِ اذاً سلاحاً ضدك للحكومة ؛ ولا تختم ولا وصلاً !!

فأجاب بصوت كالرعد

سأختم اثنين عوضاً عن واحد وسأعطي وصلاً لكل من يريد قبل تتأمل العساكر ان تأخذني أسيراً اذا بالصدفة غُلبت مرةً واحدة ؟ هل اسقط بين اياديهم حياً ؟ أم انا اذهب واجلس قبالة القاضي ليحكم علي كسارق ؟ أواه فانك لا تعرف اذاً الحاج استافروس ؟! فوضع جبل البارنيس فوق قمة جبل تايجيت اسهل من ان يمسك الحاج استافروس في الجبال ويقاد الى المحكمة ! فاكتب لي باليونانية اسمك واسم مادام سيمون

— ليس بضروري

— اكتب اكتب ؛ فانك تعرف اسمي واني متأكد بانك لا تنساه ابداً

واكتب لي اسمك لاتذكر بك

وبعد ما كتبت اسمي وصار الضباط الذين حول الملك يصفقون عجباً واستحساناً لاعمال الملك ولم يعلموا بان ذلك سيكلفه ماية وخمسة عشر الف فرنك ركضت فرحاً الى خيمة مادام سيمون واخبرتها بما جرى فتبسمت لما عرفت الواسطة التي اخترعتها لسلب اللصوص وقبل مرور نصف ساعة من الزمان اعطتني مادام سيمون التحرير الآتي :

من جبل البارنيس بين شياطين الستافروس

يا اخي العزيز

ان الجنود الذين ارسلتهم لمساعدتنا قد خانونا وسرقونا فارجوك ان تشتقهم جميعاً وخصوصاً قائدهم بيريكليس وحال خروجي من هنا سأكتب فصلاً مطولاً الى جريدة التيمس بخصوصه فلا تتأمل خلاصنا اذاً عن يد الحكومة المحلية فحال ذهابنا سيجتمع الشعب اليوناني ليقتسم اسلابنا فالواسطة الوحيدة لخلاصنا قد اشار علينا بها رجل الماني صادق امين كنت اظن قبلاً جاسوساً وقد اعلمني بان اموال هذا الستافروس أو الحاج ستافروس (كما تريد) موضوعة في محلنا فتحقق الواقع واذا وجدت ذلك صحيحاً فلا مانع من دفع ماية وخمسة عشر الف فرنكاً أي ٤٦٠٠ ليرة استرلينية الى البنك اليوناني الوطني بعد اخذ الوصل المذيل بختم ستافروس واتأمل في الختام بانك ترجعنا باقرب وقت الى حالتنا القديمة لانهُ صعب جداً وجود انكليزيتين تلتزمان ان تاكلا من اللحم بدون بهاروان تشربا الماء وحدهُ كالسمك ودمت لاختك

رفقه

سيمون

فأخذ الملك المكتوب مني وصار ينظر اليه بعين خائفة ومع اني متأكد جهله اللغة الانكليزية اضطربت خوفاً من ان يدرك معناه لاني كنت اتوهم هذا الرجل الابليسي قادراً على العجائب ولم تظهر عليه علامة إلا لما رأى الرقم ٤٦٠٠ ليرة فعلم

حينئذٍ ان لا تعلق له بالجنود فوضع التحرير بعلبة من التنهك مع اوراق اخرى و بعد احضار الراهب سلمهُ العلبة واعطاه بعض تعليمات خصوصية

و بعد ذهاب الشيخ المحترم صار الملك يضحك وأصبح مسرورًا جدًا وصنع لنا وليمة فاخرة واعطى لكل نفرٍ من رجاله ضعفين من النبيذ وذهب بذاته ليرى الجرحى وليخرج بيده رصاصة سوفوكليس

فتغذيت مع السيدتين احسن غذاء اتذكره فكل احزاني كانت قد انتهت فاني حرٌ وزيادة على ذلك من يعلم حين التخلص من الحاج ستافروس ماذا اصير ... فاكلت وشربت بكل قابلية واخذت قدحًا من النبيذ عن صحة ماري آن وعن امها وعن اقربائي وعن الاميرة بيسون فسألتني مادام سيمون

— من هي هذه الاميرة ؟

ومن كون سيرتها توافق الحال ابتدأت ان اخبرها عن تاريخها فماري آن كانت تصغى الى كلامي اصغاءً تامًا ولما انتهيت قالت

— لقد فعلت حسنًا الاميرة بيسون لانهُ يجب على الامرأة انتخاب نصيبها وبذلك تتم السعادة

فكدت اطير من الفرح عند استماع هـذا الكلام وجلست ازاءها وعند ما كنت اناولها الطعام كنت اقترب منها جدًا حتى انني رأيت صورتي في عينيها وكانت أول مرة رأيت بها ذاتي جميلاً ولم اكن السبب في ذلك ولكن حسن المرآة التي ارتني ذاتي بديعًا وقلت بفكري ان في قلب ماري آن ذات الصورة التي رأيتها بعينيها فكلما كنت اتوهمه وافتكر به لم يكن من العشق (لاني لا أريد ان اضع بي حاشية لم اعرفها) ولكن من محبة قوية واكيدة تكفي للانسان الذي يريد ان يتزوج

ففي هذا اليوم السعيد صرت اخبر ماري آن واياها عن تاريخ حياتي ووصفت لها منزلنا في هامبورغ واخبرتهما عن مستقبل اخوتي بان هنري سيخلف اباه وفريدريت خياط وفرانتز ونقولا قوادًا في العسكرية احدهما مع المشاة والثاني مع

الخيالة وحدثتهما عن دروسي وعن فحصي وعن النجاح الذي حصلت عليه في المدارس العالية وعن املي في المستقبل ان اصير معلمًا بمعاش لا يقل عن الثلاثة الاف فرنك وهما اذًا كانتا مهتمتين بحديثي ولكني كنت مسرورًا جدًا واكثرت من شرب الخمر في ذلك اليوم وانبسط أيضًا من ان مادام سيمون ما عادت تتكلم عن مشروع الزيجة لانه كان احب اليّ ان لا تتكلم عنه من ان تتكلم علنًا و بخفة ومضى النهار كساعة ساعة حظ واردت في ثاني يوم اوقف الشمس عن مسيرها لانها اسرعت جدًا وعلمت ماري آن مباديء علم النبات

ونهار الاربعاء صباحًا اتى الراهب واعطى الملك تحريرًا من رئيس البنك اليوناني وآخر لمادام سيمون والتفت حينئذٍ الحاج ستافروس نحو مادام سيمون وقال لها

— انك مطلقة القياد يا سيدتي وابنتك كذلك واتأمل بانك لا تذكرينا بالافعال القبيحة فقد قدمنا لك كل ما نقدر على تقديمه واكثر واني قد ازعجتك قليلاً أول البارحة ولكن القائد المكسور لا يعلم ما يتكلم فسامحيني اذًا واني اتجاسر بتقديم هدية للدماوازيل خاتمًا من الانتيكات اشتريته من تاجر في بلايل فالدماوازيل ستظهر هذه الجوهرة في انكلترا وتحدثهم عن زيارتها بلاط ملك الجبال

فترجمت هذا الكلام حرفيًا لمادام سيمون وادخلت الخاتم في خنصر ماري آن ثم قلت لملك الجبال

— وانا ألا تعطيني تذكارًا منك

— انت يا سيدي العزيز ستبقى هنا لان فديتك لم تدفع بعد

فالتفت نحو مادام سيمون فناولتني التحرير الآتي :

يا اختي العزيزة

بعد اجراء التحقيقات دفعت مائة الف فرنك للبنك اليوناني الوطني بعد أخذ الوصل ولم ادفع الخمسة عشر الف فرنكًا لان القيمة ليست باسمك فيستحيل بعد ذلك تحصيلها هذا واني انتظر حضورك والسلام

ادوار شارير

وقالت لي

— لِمَ حزنت فقد تم ما كنت تتمناه فانا وابنتي قد خلصنا بدون دفع الفدية وهذه بغيتك واما انت فاستعمل طريقتك الاولى للهرب وهي توافقك لانك وحدك الآن ولا تحتاج لتخليص امرأتين معك فمتى ننتظر زيارتك؟

فشكرتها بلطف واجبتها

— ستر بن بان الالماني يقدر ان ينجو هرباً وعن قريب انشاء الله تصلك اخباري

— حالما تخرج من هنا لا تتأخر عن الحضور الينا والآن قل لهذا الستافروس ان يعطنا خمسة أو ستة لصوص

— ولماذا ؟

— ليحرسونا ويدافعوا عنا هجمات الجنود !!!

الفصل الحادي عشر

الفرار

وبينما نحن في الوداع انتشرت رائحة ثوم عبقت بها كل الارجاء فالتفتنا واذا بالخادمة آتية متكلة على كرم وسخاء مادام سيمون فهذه القروية وان تكن ما عادت خدمت منذ يومين اتت تطلب اجرتها فمادام سيمون تأسفت لانها لا تقدر ان تعطيها شيئاً وترجتني ان اخبر الملك كيف قد سُلبت دراهمها ومن سلبها فالحاج استافروس هز كفيه وقال بدون ان تظهر عليه ادنى علامة من التعجب والكدر

— ان تربية بير يكليس عاطلة فالمدينة والبلاط .....

ثم زاد على ذلك بصوت عالٍ

اخبر هاتين السيدتين بانني انا الذي اعطيتهما هـذه الخادمة وانا المطالب

باجرتها ومن جهتهما فسأرسل معهما حرساً وان يكن لا خطر عليهما الى آخر حدود الجبال فالجنود ليس كما تتوهمان وستجدان غداً دابتين ودليلاً للطريق في قرية كاستيا فكل شيء مهيء سلفاً . ألا تفتكر بانهما تعطياني يديهما علامة الصلح ؟

فمدام سيمون تمنعت قليلاً ولكن ماري آن مدت يدها وقالت له بخبث

— انك الفريسة الآن ونحن الاسود

فاجابها الملك

— انت لطيفة جداً يا سيدتي

ولما أتى دوري قبلت يد ماري آن وراحة مادام سيمون التي قالت لي

— تشجع يا مسيو تشجع

واما ماري آن فلم تتفوه ولا بكلمة بل نظرت الي نظرةً معنوية تكفي لتهييج عسكر برمته .

وبعد ذهابهما اخذني الحاج استافروس الى جهةٍ وسألني قائلاً :

— هل غلطتَ بشيء ؟

— نعم قد غلطنا !!

— لا تخف فالانكليزيتان ستدفعان فديتك وقد استنتجت ذلك من هيئتهما كن مطمئناً فقبل ثلاثة ايام اكون خارج اليارنيس

— حسن حسن ! لان الدراهم ضرورية جداً لنا بعد خسارة اول البارحة

— ولِمَ فقد قبضت الآن مائة الف فرنك

لم اقبض الا تسعين الف فرنك فالراهب قد اخذ العشر وبالكاد يخصني عشرين الف فرنك من هذا المبلغ الذي تتوهمهُ عظيماً فمصاريفنا باهظة جداً فما يحل بنا يا ترى اذا قصد اصحاب السهام كما يقولون الآن ان يبنوا محلاً للجرحى ؟ فما عاد ينقصنا الا ان نعطي معاشاً لايتام ولارامل اللصوص الذين يقتلون معنا!

— وهل خسرت مرةً مافي مبلغ قبضته ؟

— بل مرة واحدة فكنت قد قبضت خمسين الف فرنك للجمعية فاحد كاتبي اسراري اخذ الصندوق وهرب فالتزمت ان ادفع النقص مني فحصتي كانت سبعة الاف فرنك فاكون قد خسرت ثلاثة واربعين الف فرنك ولكني قبضت على السارق وقبل شنقه قلعت كل اضراسه وادخلتها في جمجمته بضرب المطرقة ولم افعل ذلك الا تأديباً وترهيباً لكيلا يتجاسر احد ويعمل نظيره

فسررت حينما عرفت بان الملك سيخسر من جيبه الخاص ثمانين الف فرنك وانه سيفهم ذلك بعدما اكون قد نجوت من بين يديه

— ما تريد ان تفعل الآن ؟ أتريد ان نقرأ جرائد آثينا ؟ فقد احضرها الراهب وانني لا اقرأها ابداً فهاك الجريدة الرسمية وصحيفة الامل واليالبكار والكاريكاتور فكل هؤلاء الجرائد تتكلم عنا لا محالة فاقرأها واذا وجدت بها شيئاً مما يستحق الذكر فاخبرني عنه

فجريدة الامل مكتوبة باللغة الافرنسية لتفهمها اوروبا ووجدت بها فصلاً مطولاً تكذب به اللصوصيه فانها تهزأ بالمسافرين الاغبياء الذين يتوهمون الفلاح لصاً والغبار عصبة من قطاعي الطرق والذين يطلبون العفو والسماح من كل شوكة تتعلق بثيابهم وتمسك بهم وهي تفتخر بالراحة والعمومية وتعلن امنيته كل الطرق وكل جبال المملكة

واليالبكار الذي هو تأليف احد اصحاب الحاج ستافروس يتكلم عن حياة هذا البطل العظيم ويقول بان الحاج ستافروس الانسان الوحيد الذي لم يغلب قد هجم على العساكر عند الصخور السيرونيين ولكن عصبته خانته بضعفها فتقهقر لا بل انسحب بخسارة لا تذكر وهاجر من بلاد اليونان الى اوروبا حيث يعيش كملك من وفرة ثروته التي جمعها والآن اذهبوا وتعالوا واركضوا في الهول والجبال ياتجارو يامسافرين ويا اجانب ويايونان فلا عدتم تلاقوق مكروهاً لان ملك الجبال قد تنازل لكم عن عظمته وقدرته ومجده .

وفي الجريدة الرسمية كان مسطراً ما يأتي :

« نهار الاحد في ٣ الجاري عند الساعة الخامسة مساء هجمت فرقة الحاج
« استافروس الملقب بملك الجبال على العساكر التي ارسلت للمحافظة على صندوق
« الدراهم المرسل الى ارغوس فاللصوص كانوا نيفاً وثلاثماية نفر وهجموا هجوماً عنيفاً
« ولكن الفرقتين نومرو ٢ و٤ دافعتا بكل بسالة وشجاعة تحت قيادة البطل الماجور
« نيقولاديدس فولوا هاربين بعدما قتل لهم اكثر من عشرين نفراً وعلى ما قيل
« جرح الحاج استافروس جرحاً بليغاً وخسارتنا لا تذكر . »

« وفي ذات النهار وذات الساعة انتصرت جيوش الملك انتصاراً عظيماً على بعد
« عشر فراسخ من الواقعة الاولى على قمة جبل الياريس وهناك ايضاً اصيب ملك الجبال
« برصاصة كما هو مشروح في تقرير البطل بيريكليس ولكن قتل وجرح لنا عشرة من
« الجنود وبينهم المسيو سبيرو وهو شاب خارج من المدرسة فانه اصيب برصاصة
« فمات بالشرف والفخر خدمة للوطن ومع كل هذه الخسارات فقد فاز النظام والشريعة
« والجنود . »

ورأيت في جريدة الكاريكاتور رسم ملك الجبال وبيريكليس يتعانقان وتحت هذه الصورة مكتوباً باحرف كبيرة :

« انظر كيف يتحاربان »

فقلتُ بذاتي

— على ما يظن لست الشخص الوحيد المطلع على سر بريكليس وهذا السر سيصبح قريباً اشهر من نار على علم .

فطويت الجرائد وبينما انتظرت رجوع الملك كنت افتكر بالحالة التي تركتني بها مادام سيمون وكنت اقول :

— من يخلص حاله بشجاعة خير له من ان يخلص بدفع الدراهم فلا محالة ستعبدني ماري آن اذا رجعت اليها سالماً بالطريقة التي حدثتها عنها ولكن لربما زلقت وانكسرت

كتبخانهٔ مجلس شورای ملی ۱۳۰۲

يدي او رجلي فهل يا ترى تنظر ماري آن بجبتها الى رجل اكتع او اعرج ؟ وزيادة على ذلك اني تحت الحفظ ليلاً ونهاراً وطريقتي هذه لا تتم الا بعد موت حارسي فقتل الرجل ليس سهلاً بالفعل وان يكن لا يعد شيئاً بالكلام خصوصاً اذا كان المخاطب محبوبةً .

فبعد ذهاب ماري آن صرت أرى السرقة عاراً والقتل اصعب جداً وصرت اقول ان حماتي لم تفعل حسناً فلم تكن تكلفها فديتي غير خمسة عشر الف فرنك فكانت تقدر ان تقيدها على حساب ابنتها لان هذا المبلغ سيصبح عندي زهيداً حين اتزوج فاخذت ألعن مادام سيمون برقةٍ و بلطف كما يلعن الصهر امرأة عمهِ وكذلك جان هاريس الذي تركني فلو كنت مكانهُ لما تركته ثمانية ايام بدون خبر فلم اكن اتأمل خلاصي لا من لوبستر فانه صغير جداً ولا من جيكامولانه لا يعرف يسلك ولو كان قوياً ولا من مير ينه لانهُ محب لذاتهِ ولكن من هاريس وحده فانه كاد يقتل نفسه لتخليص آمةٍ سوداء أفلا يعتبرني بعينيه كتلك الجارية ؟

ولكن الحاج استافروس غير كل افكاري فانه قدم لي واسطة للهرب غير مخطرة ولا يلزمها الا الاخذ لاجل الركض فانه رآني اتثاءب فقال لي وهو يتبسم

— ما بك ؟ لقد ضجرت من القرآءة كما يظهر لي لاني لم افتح كتاباً بدون ان اتثاءب وقد سررت الآن لان الدوقتور ايضاً لا يقدر ان يقاوم ذلك ولكن لمَ لا تستعمل وقتك باشياء مفيدة ؟ فانك اتيت هنا لتجمع نباتاً أتريد ان ارسلك لتفتش في الجبل مع لصٍ للمحافظة ؟ فاني لا امنع عنك ذلك فكلٌ ينبغي ان يتعاطى مهنتهُ في هذه الدنيا لك العشب ولي الدراهم ! وسنقول لاصحابك بان هاته الاعشاب قد جمعتها من مملكة الحاج استافروس واذا وجدت نبتة غير معروفة في بلادك فينبغي ان تدعوها باسمي وتسميها ملكة الجبال

فافتكرت بنفسي باني اذا كنت بعيداً عن المعسكر وليس معي غير لصين فقط فلربما اقدر ان اخلص ركضاً لان الخطر يضاعف سرعتي فالارنب اسرع الحيوانات

ركضاً لانه تحت الخطر دائماً

فقبلت تقدمة الملك فنادي لصين وقال لهما بكل بساطة

— هذا ميلورد بخمسة عشر الف فرنك فاذا افقدتماه فينبغي ان تدفعا عنه فديته أو تكونا مكانه

فتأملت اللصين بكل امعان ووجدت لهما ساقين من حديد ونظرت أيضاً بكل كدر وأسف مع كل منهما بارودة اطول من صاري مركب ومع ذلك لم يضعف عزمي لكوني تعودت على مناظر كهذه فوضعت علبتي على ظهري ومشيت

— مع السلامة ! ناداني الملك

— استودعك الله يا سيدي !

— لا يا اخي بل الى الملتقى ان حسن لديك

فتوجهت نحو آتينا فتبعاني حارساني وسمحا لي ان اذهب حيثما أريد فهذان اللصان كانا مهذبين اكثر من أربع عساكر بير يكليس فكنت امشي واتحرك كيفما شئت وحارساي يفتشان على بعض الاعشاب لاجل السلاطة مساء فاظهرت رغبة زائدة في التفتيش أيضاً فصرت اقلع النبات عن اليمين وعن الشمال واخذت واحدة منها ووضعتها بكل اعتناء في علبتي ولكني لم اضع غيرها لعلمي بان زيادة حملي تعوقني عن الهرب فقد رأيت مرةً جواداً مطهماً سقط في ميدان السباق لان حمله كان زائداً ثلاث اقات عن المعتاد فكنت انظر الى الارض بدون ان أرى شيئاً ففي ذلك الوقت لم اكن نباتياً بل مسجوناً وقد صادفت عدة اعشاب ثمينة ولكني لم التفت اليها فلم اكن أرى غير شيئين آتينا في الافق واللصين حولي وكنت اراقبهما من وقت الى آخر متأملاً بانهما ولربما يلتهيان عني ولو كان لحظة فقط ولكني كنت اتأمل المحال فاعينهما كانتا دائماً عليَّ

فافتكرت بان اخلق لهما واسطة اشغلهما بها فكنا في طريق ضيق مستقيم يقودنا لا محالة الى آتينا فنظرت الى جهة الشمال عشباً نابتاً على رأس صخرة فاظهرت ميلاً

شديداً ورغبة زائدة بالحصول عليه وصرت اتسلق الصخرة قليلاً واسقط حتى اخذت الشفقة أحد حارسي فتقدم وقال لي

— انهض على ظهري

ولم يكن هـذا فكري فضربت برجلي على ظهره وكان حذائي مسمراً فتألم ورماني ولما رأى رفيقه ذلك وكان يهتم بأمر النبات وقال له

— انا أصعد محل الميلورد

فنهض ومسك النبتة من ساقها وشدها فقلعها وصرخ

فكنت اركض بدون ان انظر ورائي فاندهاشهما هذا جعلني اسبقهما بعشرة ثوان ولكنهما لم يتعاتبا بل ركضا حالاً ورائي فالطريق كان سهلاً ومتساوياً فكنت اركض بدون ان اشعر بالاحجار التي كانت تتطاير من بين اقدامي وبدون ان انظر اين موقع رجلي وصرت ارى الصخور والعليق طائرة وآتية نحوي فكنت أخف من الريح وخيل لي بان لي اجنحة ولكن قرقعة الاربع اقدام كانت تتعب اذني وبعد هنيهة لم اعد اسمع شيئاً بغتة فظننتهما قد تعبا ولكن غبار كثيف ارتفع على بعد عشر اقدام والتصق بالصخرة نقطة بيضاء وسمعت بذات الوقت اطلاق بندقيتين فاللصان قد اطلقا عليّ الرصاص ولكنهما اخطآني فكانا يتبعاني ركضاً ويناديانني

— قف ! قف !

ولكن لا حياة لمن تنادي فاضعت الطريق ومع ذلك كنت اركض دائماً بدون معرفة جهة مسيري ووصلت بغتة امام حفرة عميقة جداً وواسعة فقفزت فوقها وخلصت منها ولكن انقطعت رباطات بنطلوني فقد هلكت ! لِمَ تضحك يا سيدي ؟ فاني اشتهي ان اراك راكضاً بدون قشاط ماسكاً بنطلونك بكلتي يديك وقبل مرور خمس دقائق امسكاني وربطا يدي وقاداني بضرب النبوت الى المعسكر

فلاقاني الملك كملاقاته برجل مفلس كاد يأخذ له خمسة عشر الف فرنك وقال لي

— كنت اظنك بعكس ما انت يا سيدي فقد خدعت بظاهرك ولم اكن اظن

انك تعمل ما عملت بعد حسن الالتفات والسلوك الذي اجريناه بحقك فلا تستغرب اذاً اذا استعملنا معك الصرامة لانك اجبرتني عليها فسيبقى معك من الآن وصاعداً أحد ضابطي ولا تخرج من خيمتك أصلاً واذا كررت العمل فاستعد للقصاص

— والتفت نحو احد الضباط وقال

— باسيلي ! اليك قد عهدت حراسة المسيو

فسلم عليّ باسيلي بادبه الاعتيادي فافتكرت بذاتي

— انت الذي رميت الاولاد في النار انت الذي اردت ان تمسك بماري آن وانت الذي اردت قتلي يوم عيد الصعود فاذاً احب اليّ ان يكون شغلي معك من ان يكون مع غيرك

لا اريد ان اخبرك عن الثلاثة ايام التي قضيتها في غرفتي مع باسيلي فانهُ سبب لي ضجراً لا اريد ان اشارك به احداً ممن احبهم فانه لم يكن يريد لي شراً لابل كان يظهر لي محبة متينة واني اظن بانه لو اخذني اسيراً لحسابه الخاص لتركني بدون اخذ الفدية فهيئتي قد حسنت لديه من هول مرة ينظرني بها كنت اشبه اخاه الذي قتل محكوماً عليه باطلاق الرصاص وكنت افضل ان يعاملني اردأ معاملة من ان يظهر لي كل هذه المحبة الشديدة فانه كان ينهض قبل الفجر ليقول لي صباح الخير وفي المساء قبل المنامة لم ينس ولا مرة من ان يتمنى لي نوماً سعيداً واحلاماً مذهبة وفي ساعات النوم كان يهزني بشدة ليسألني اذا كنت مغطىً جيداً وعلى المائدة كان يقدم لي الاكل كخادم وعند اكل الفاكهة كان يحدثني بنوادر صارت معهُ او كان يرجوني ان اخبره بعض الحوادث السياسية فزيادة عن اني لا ارغب ان امسك بيد رجل قاتل الاولاد لم اكن اريد ان اصاحب وارافق رجلاً نويت على قتله مدافعة عن نفسي ولكني لم ارد ان اقتله بالخداع فكنت اظهر له بانني لا احبه ولا اشتهيه وكنت انتظر الفرصة لاخلص منه ولكن محبته الزائدة كانت ترغمهُ على البقاء معي وحينما كنت اقترب من الشلال لا تمعن بطريقة الفرار كان يمسكني

بثيابي ويقول لي بحنو الامهات

— حذار من ان تسقط ! فسأتذكر بك طول عمري

ولما كنت اريد النهوض سرًا في الليل كان يقفز خارج فراشه ويسألني اذا كنتُ محتاجًا لشيء . فلم أرَ كل عمري انسانًا يحسن المحافظة نظيرهُ فكان يدور حولي كببغاء في قفصٍ .

والذي كان يزيد بي اليأس كثرة امانتهِ وثقته بي فاظهرت مرة بعض الرغبة لارى سلاحه فوضع خنجره في يدي وهو خنجر مسكوبي مجوهرٍ ومرصع من معمل طولا فجردته من غمده وصرت اضعه على طرف اصبعي ثم صوبت رأسهُ نحو صدرهِ وانتخبت المحل الواقع بين الضلع الخامس والسادس اي عند قلبهِ فقال لي وهو يتبسم

— لا تشد فانك تقتلني

فبالواقع يا سيدي لو شددت قليلاً لكنت قتلتهُ ولكني لا أعلم ما منعني عن فعل ذلك فالرجل الشريف لا يفتك باحد غدرًا ولو كان قتالاً وبعد ما ارجعت الخنجر لباسيلي مد لي طبنجتهُ فرفضت اخذها قائلاً لهُ اني اكتفيت فوضع يدهُ على الزيندك وادارها نحو دماغهِ وقال لي ! بتحريك اصبعي لا يعود لك حارس !

لا يعود لي حارس ! وافرحتاه ! هذا جل مرادي ولكن الفرصة لم تكن مناسبة فمن اللازم قتلهُ في الليل وليس في النهار ومن سوء طالعه كان يضع سلاحه بين فراشه وفراشي بمحل منظورٍ .

وبعد التأملات والافكار العميقة وجدت طريقة للهرب بدون لزوم قتله فهذا الفكر اتاني يوم الاحد الساعة السادسة فكنت قد لاحظت بان باسيلي يحب شرب العرقي جدًا ويكثر من شربه حتى يفقد حواسه فدعوته الى الاكل معي على المائدة فكاد يطير من الفرح من هذه الدعوة الودية فالحاج ستافروس وان لم يعد يزورني من بعد ما فقدت محبته لم يقطع عني المآكل اللذيذ والشرابات المفتخرة فكان دائمًا عندي دمجانة من النبيذ وأخرى من العرق فابتدأ باسيلي ان ياكل معي بكل تواضع وكان

جالسًا على بعد ثلاث اقدام مني نظير قرويّ ياكل مع سيده على المائدة ولكن النبيذ قرّب المسافة وعند الساعة الثامنة كان حارسي يخبرني باطباعه وعند الساعة التاسعة صار يحدثني عن اعماله وقت صباه اعمال لو سمعها مستنطق أو قاض لاقشعر جسمه وعند الساعة العاشرة سقط في محبة البشر وحلف لي بانه لم يصر لصًا الا لنفع بني آدم لانه بعد ما يجمع مالاً وافرًا من اللصوصية سيؤسس محلاً للمرضى على نفقته ويترهب في جبل اتوس ووعدني بانه لا ينساني في صلواته واخيرًا فقد صوته وصار رأسه يتمايل الى اليمين والشمال كرقاص الساعة ثم مدّ يده نحوي وشرب قدحًا اخر وسقط الى الوراء ووقع بسبات عميق لا يوقظه منه ضرب المدافع

فلم اضع ولا لحظة فالدقائق كانت من ذهب فاخذت طبنجته ورميتها في الساقية ومسكت خنجره واردت ان القيه أيضًا ولكني افتكرت بمنفعته لاجل قطع العشب فابقيته معي واخمدت النار الشاعلة التي كانت تنيرنا وصرت اقطع الاعشاب وقبل مرور ساعة من الزمان جمعت منها مبلغًا وافرًا وحملته ورجعت به نحو النبع ولكن رجلي لطمت باسيلي على غير قصد مني فنهض وهو يتمايل وسألني نظير عادته اذا كنت محتاجًا شيئًا فانزلت حملتي واقتربت من السكران ورجوته بحق الصحبة ان يشرب قدحًا اخر من الخمر على صحتي فشرب نصفه وسكب الباقي على لحيته ورقبته وسقط بدون حراك على وجهه

فركضت الى المجرى وبنيت حاجزًا متينًا باقل من ساعة وكانت وقتئذٍ الساعة واحدة وربع بعد نصف الليل ولكني خفت من السكون الذي عقب صوت جريان الماء وافتكرت بان نوم الحاج ستافروس نظير بقية الشيوخ ولربما ينتبه من هذا الهود الفجائي الذي حدث فزحفت من شجرة الى اخرى ونظرت الى مخدع الملك فالفيته نائمًا بقرب شبوقجيه فرجعت الى الحاجز وكان قد ارتفع الماء قدمًا في المخدع واخذت علبتي التي كانت معلقة فوق فراشي ووضعتها على كتفي ومررت من الجهة التي تغذينا بها فاخذت مابقي من الخبز واللحم ووضعته في العلبة وبعد ما تاكدت ان

الحاجز متين وان الريح قد نشفت طريقي نزعت حذائي وعلقته برباطات عابتي واردت ان أخذ معي خنجر باسيلي ولكنه كان تحت الماء ولم افتش عليه خيفة من ان يذهب الوقت سدىً وبعد افتكرت وتأملت كل شيء ونظرت الى حاجزي وتذكرت بأبي ووجهت قبلة في آتينا وماري آن مسكت بيدي اغصان شجيرة مدلاة نحو الاسفل ونزلت على حراسته تعالى

فالصخر لم يكن ناشفاً كما ظننت وكان يقشعر جسمي من ملامسته لانه كان بارداً وناعماً كالحبة والاعشاب والثقوب التي كنت اتأمل النزول بواسطتها كانت اقل بكثير مما كنت افتكر فاضعت الطريق مرتين وثلاث ونزلت مرة نحو الشمال ثم التزمت ان ارجع الى اليمين وذلك بعد اتعاب وعذابات لا تحصى ولا تقدر وزلت بي القدم وسقطت من علو خمس عشر قدماً ولم اجد شيئاً امسك بهِ ولكن غصن نبتة برية مسك بطرف جبتي وهاك الاثر وبعد نزول بضع اقدامٍ طار عصفور من بين فخذي فجفلت وكدت اسقط الى الوراء وكنت امشي على يدي ورجلي وخصوصاً على يدي لان اظافيري لم اعد اشعر بها من الالم وبعد عذابات جمة كدت افقد الارادة ولكني صرت اشجع ذاتي واقول

— هيا ! قدم اخرى اكراماً لابي ! وقدم اخرى اكراماً لماري آن ! وقدم اخرى نكاية بالحاج استافروس !

واخيراً وصلت الى صخرةٍ مرتفعة فجلست عليها ونظرت الى الوراء فلم اكن الا على بعد عشر اقدام من الساقية فنظرت الى ساعتي وكانت وقتئذٍ اثنين ونصف بعد نصف الليل وكنت توهمت باني بقيت اكثر من خمس ساعات في النزول وصرت المس جسدي بيدي فلم يكن بي الا بعض خدشات لا تستحق الذكر فرفعت عيني ونظرت الى العلا ليس لاشكر الرب بل لأتأكد ان لا حراك في مخدعي القديم فلم اسمع الا صوت وقوع بعض نقط الماء حول الحاجز الذي بنيتهُ فقد تم لذلك الوقت كلما كنت اريدهُ وكنت اعرف جهة آتينا فاستودعك الله اذاً

يا أيها الحاج ستافروس

وهممت بالنزول الى اسفل الساقية ولكن شبح ابيض تخايل لي واوقفني عن ذلك وسمعت اعلى صوت نبيح يحرك الصدى في ذلك الوقت فوا أسفاه يا سيدي فاني لم افتكر بكلاب الحاج ستافروس فهذه الكلاب تجول كل الليل حول المعسكر وقد اشتم واحد منها رائحتي فأتى اليَّ فيستحيل عليَّ وصف ما شعرت به وقتئذٍ من البغض والكره لذلك الحيوان وكنت احب اني اقع بين مخالب نمر أو نياب أسدٍ فانها تاكلني وتمزقني بدون اظهار حالتي فحيوانات البرية تصطاد لنفسها ولكن هذه الكلاب تصطاد لرئيسها واستاذها الحاج ستافروس

فصرت العنهُ والقبهُ بكل الالقاب الرذلة ولكن عبثاً فان صوتهُ كان اعلى من صوتي فغيرت النغم وصرت اناديه بكلام لطيف باللغة اليونانية ولكن لم يكن يعرف جواباً الا نبيحاً دوت له الجبال فسكتُ واضطجعت في الماء المتجمع قليلاً حولي فتمددت تحت الصخور وهو يهدر قليلاً فقصدت ان ازحف نحو الساقية ولكن هجم عليَّ وكاد يفترسني لو لم أرجع عاجلاً وسقطت برنيطتي بين مخالبه أو بالحري بين انيابه فمزقها كل ممزق واصبحت عدماً كأنها لم تكن في حيز الوجود ولو أملت النجاة ببعض نهشات فقط لنزلت الساقية ولكن هذه الكلاب لا تكتفي بالعض بل بالاكل وبعد برهة افتكرت بانه يكون جائعاً واذا وجدت ما اسد رمقه به فلا يعود يفترسني بل لربما يعضني فقط فرميت له نصف خبزتي فسقطت كأنها في هاوية فتصور يا سيدي حصوةً وقعت في بئر ماء فاخذت انظر الى الباقي من الخبز بكل كدر ولكن بالقضاء والقدر رأيت في علبتي صرةً بيضاء محتوية على خمسة وثلاثين غراماً من الزرنيخ الابيض النقي وذلك لبعض استعمالات كيماوية فقلت للكلب :

— الآن تاكل مريّاً !

واخذت منها مقدار خمسة أو ستة غرامات ووضعتها في ثقب محتو مياهً في الصخر وارجعت الباقي الى العلبة ولما ذاب الزرنيخ في الماء وضعت به قطعة من الخبز

فتشربت السايل كاسفنجة ولما رميتها للكلب التهمها بكل فرح وقابلية

ولكن لِمَ لم يكن معي ستريكنين أو سم آخر ناقع قتال اكثر من الزرنيخ ؟

فكنت انظر فعل الزرنيخ وانا على مقالي من الجمر وطال بي الزمان وانا بالانتظار وبعد نصف ساعة ابتدأ الكلب يهدر بكل قوته فلم اربح بهذه المسئلة شيئاً لان الهدير أو النباح صوت النزاع أو صوت الغضب يصلان على حدٍ سوى الى اذني الحاج ستفافروس ولما ابتدأ الحيوان يتشنج بحركات عصبية من تأثير فعل السم ابتهجت وتأملت ان الكلب بسبب الالم يترك لي محلاً للهرب ولكن ما تأملته كان محالاً لانه كان ينظر اليَّ بغضبٍ فاتحاً فاه ولسان حاله يقول

— لا تتأمل النجاة فلا بد لي من الانتقام

فرميت له محرمتي فمزقها نظير برنيطتي وابتدأ الفجر يظهر وشعرت باني ارتكبت جريمة قتل الكلب بدون فائدة لانه اذا دام الحال ساعة اخرى تأتي اللصوص وتمسكني فرفعت رأسي نحو الغرفة التي تركتها بدون امل الرجوع اليها واذ بسقوط ماء بارد وحجارة صغيرة اقلبني على الارض فالحاجز الذي بنيته قد انهدم وسقطت المعبرة بكليتها على رأسي فبرد دمي في عروقي ونظرت الى الكلب فكان لا يزال شاخصاً بي فنزعت علبتي عن كتفي وضربت بها رأسه ضربة قوية سقط منها مغمى عليه وسحبته المياه في مجراها وقفزت الى الساقية فكان الماء الى وسطي وصعدت الى صخور الشاطيء الاخر وصرخت

— فلتحيى ماري آن !

واذ باربع لصوص خرجوا من الارض ومسكوا برقبتي صارخين

— لقد مسكنا القاتل ! فقالوا جميعهم قد مسكناه ! وسيسر الملك لانه سينتقم لباسيلي

فكان الظاهر باني قتلت باسيلي بدون معرفتي ولم اكن قد قتلت احداً ايضاً في ذلك الوقت فباسيلي هو اول قتيل ولكن بعده قتلت كثيرين محاماةً ومدافعةً

عن نفسي ليس الا واما باسيلي فقد ابقى لي وحده توبيخ الضمير والندامة وان كنت لم اقتله عمداً وما من قاتل مسكتهُ الجنود كان يطرق نظيري بين اللصوص فلم اكن اتجاسر ان ارفع نظري لارى الذين اوقفوني لاني لم اكن اشعر بي قوةً على احتمال انظارهم فكنت متأكداً اني سأظهر ازاء فريستي وبحضور القاضي . فكيف اقدر ان انظر الى الملك بعد كل ما علمته ؟ ام كيف اقدر ان انظر بدون ان اذوب خجلا الى جسد باسيلي العديم الحراك ؟ فاكثر من مرةٍ أتوت رجلاي تحتي وكدت اقع ولكن ضرب اللصوص الزمني دائماً التقدم

فدخلت المعسكر وكان خاوياً ومررت بغرفة الملك حيث لم اجد الا بعض الجرحى ونزلت او بالحري سقطت في اسفل مخدعي فالمياه بعدما انسحبت تركت آثار الوحل والطين على الحيطان والاشجار وبقي منها قليلاً في المحل الذي قطعت منه العشب ورايت اللصوص والملك والراهب واقفين وايديهم وراء ظهورهم حول جثةٍ رمادية اللون حالما نظرتها انتصب شعر رأسي فاسأله تعالى ان لا يريك منظراً كهذا يا سيدي . هل نظرت مرة ما ذبابة كبيرة وقعت في اشراك العنكبوت ؟ فالرتيلاء اذا لا مقدرة لها على اكلها دفعة واحدة تنسج حولها عدة خيطان وتحولها الى هيئة غير معروفة فهكذا كانت حالة باسيلي وقد وجدته بعيداً عن المحل الذي تركته به عشرة اقدام ولا اعلم اذا كانت منازعته سبب ابتعاده او ان اللصوص غيروا محله ولكني كنت متيقناً بان موته تم بكل سهولة لانه كان سكراناً وغير واعٍ لحاله

وحال وصولي ارتفع ضجيج عظيم وتقدم الملك الي وهو اصفر كالموتى ومسكني بيدي الشمال وسحبني بقوة خلت منها بان زراعي قد تفككت وشدني الى الامام حتى ظننت ذاتي باني لامست الجثة الملقاة فتأخرت الى الوراء رعبة وهولاً ثم صرخ الملك بصوته الرنان كالرعد

— انظر وتأمل نتيجة اعمالك ! واملئ نظرك من فريستك يا تعيس ! فالى متى تتمادى بشرورك ؟ ومن كان يقدر ان يظن حال دخولك عندي انك قاتل

سفاك الدماء ؟

فتممت بعض اعتذارات واخبرت القاضي باني لم اكن مذنباً الا لقلة درايتي واني المذنب فقط بكوني اسكرته لاخلص من حراسته وليس لاقتله فما يكون ذنبي اذا طفت المياه عليه واغرقته بعد هربي بساعة والبرهان على انني لم اكن اريد له شراً عدم ضربي اياه بالخنجر حينما كان سكراناً وبالوقت الذي كان كل سلاحه معي .

— بالاقل قال لي الملك اعترف بان عدم فطنتك لم تكن ناتجة عن محبة الذات فقط بل عن التوحش فلم تتهدد حياتك ولم تبقَ هنا الا لتدفع قيمة زهيدة ومع ذلك قصدت الفرار شحاً وبخلاً ليس الا فلم تفتكر الا باقتصاد بعض الدريهمات ولم تهتم بامر هذا المسكين الذي مات بسببك ولم تهتم بي انا ايضاً فانك افقدتني احد اعضائي التي لا اقدر ان استغني عنها واي وقت انتخبت لذلك ؟ في وقت هاجمتني به كل جيوش المصائب دفعة واحدة في وقت هربت به وفقدت احسن واشجع وابسل عساكري حيث انجرح سوفوكليس ومات الكورفي وقتل سبيرو الشاب الذي كنت متأملاً كثيراً به حيث اصبحت كل رجالي حزانى ومأيوسين حينئذ اتتك الجسارة ان تسحب باسيلي ايضاً ؟ ألم يكن اوفق ان تدفع فديتك مايةَ مرة من ان يقال بانك قتلت رجلاً لاجل قيمة خمسة عشر الف فرنك ؟

— ولكنك صرخت بدوري قد قتلت كثيرين ولاجل قيمة اقل من هذه

— هذه حالتي يا مسيو وليست مهنتك فاني لص وانت دوقتور انا يوناني وانت الماني .

فاطرقت بالارض عند هذا الكلام الذي لم يكن له عندي جواباً وعرفت اني لم اخلق لقتل الناس واذ لم اجاوب اكمل الملك كلامه ولكن بصوت اعلى من الاول بدرجة

— اتعرف ايها المنكود الحظ ذاك الذي كنت السبب في قتله فهو من نسل

اللصوص سولي الشهيرين منذ اربعة اجيال وكل اجداده قد قتلوا باطلاق الرصاص او شنقاً ولم يمت احد منهم على فراشه ومن مدة ست سنوات حكم على اخيه بالقتل شنقاً فالشجاعة ومحبة الدين انتقلت بالوراثة الى كل اعضاء هذه العائلة فلم يكفر باسيلي ولا مرة فكان دائماً يعطي الكنائس والمساكين ويشعل شمعة يوم عيد الفصح اكبر من كل رفقائه وكان يفضل الموت على ان يأكل لحماً يوم صيام وقد كان يجمع هذه الدراهم ليتزهد في دير على قمة جبل آتوس أتعرف كل هذا ؟

فاعترفت بكل خضوع بانه قد حكى لي ذلك قبل موته

— اتعرف ان باسيلي كان اشجع كل رفقائي ولست اقصد ان احرك الغيرة في قلب السامعين ولا ان انكر افضالهم ولكن باسيلي كان يطيعني طاعة عمياء فلم يكن يتعب من الشغل فكان يذبح المملكة باجمعها اذا أمرته بذلك وكان يقلع عين اعز اصحابه عند اقل اشارة من اصبعي ! اواه عليك يا باسيلي فمن يكون عوضك اذا امرت بحرق قرية ؟ من يكون عوضك اذا اردت قتل أحد البخلاء ؟ من يكون عوضك اذا اردت تقطيع امرأة أو خنق ولد ؟

فعند استماع هذا التأبين صرخت اللصوص من كل جانب

— نحن ! نحن !

فمنهم من كان يمد يديه نحو الملك ومنهم من جرد الخناجر واما المتهيجون كثيراً فصوبوا عليَّ بنادقهم ولكن الحاج ستافروس هدأ هيجانهم بوقوفه قربي واكمل خطابه قائلاً :

— تعزى يا باسيلي فانك لا تبقى بدون انتقام ولو لم اكن اصغى الا لحزني لسلمتك القاتل ولكن هذا الرأس يساوي خمسة عشر الف فرنك فما العمل ؟ فانك لو تقدر على الكلام لاخبرتني بانك لا تقبل انتقاماً ثميناً كهذا

وسكت قليلاً ثم اكمل

— انني اعرف العدل فسأقاصّ المذنب بدون ان اخسر الفدية قصاصاً يكون

ابهج احتفال في جنازتك وستسمع بكل سرور من مسكنك المجدي والابدي صوت صراخه وآلامه

فهذا الختام ارضى الجميع ما عدا ابن ابي فصرت افتكر بالعذاب الذي سيخترعه لي الملك لاني كنت اعرف اخترعات اليونان خصوصاً في العذاب فالحاج ستافروس وان لم يقتلني فسيقاصني قصاصاً اكره الحياة منه وافضل الموت عليها فهذا الرجل النذل ملك الجبال اجبرني ان احضر جنازة الميت بدون ان يخبرني عن كيفية عذابي

فنزعت الثياب عن الجثة وقربت الى النبع حيث غسلت بكل اعتناء وحينئذٍ ظهرت ملامح باسيلي فلم تكن متغيرة وفمه كان لا يزال يتبسم تبسم السكران واعضاؤه لم تكن قد يبست تماماً فقهوجي الملك وشبوقجيه كلفا تلبيس الفقيد والحاج ستافروس قام بالمصروف لانه الوريث الوحيد اذ لم يكن باق أحداً من عائلة باسيلي فكل ما جمعه انتقل الى الملك بالوراثة وبعد ما ألبست الجثة قميصاً حريرًا من احسن قماش وغنبازًا ابيض وصدرية مزركشة بالفضه وطربوشاً يكاد يكون جديداً البسوها جوارب من الحرير الاحمر وبوابيج من الجلد المسكوبي فعند ما كان المرحوم حياً لم يكن يلبس هكذا وبعد ما انتهى اللبس وضعوا حمرةً على شفتيه وعلى وجهه كانسان يريد التشخيص في رواية مضحكة وفي كل هـذه المدة كانت الآلات الموسيقية تعزف لحناً محزناً لا بد من ان تكون سمعته في آثينا فاني اهنيء ذاتي بعدم موتي في بلاد اليونان لاني لا اعود اقدر ان اتعزى اذا دفنت على الحان مكربة كهذه

ثم ابتدى بحفر القبر في نصف الغرفة اي في ذات الموضع الذي كانت تنام به مارى آن وركض ثلاثة من اللصوص الى المخزن واحضروا شمعاً وفرقوه على الحضور واعطوني واحدة منه نظير البقية وبينما كان الراهب يصلي صلاة الموتى كان الحاج ستافروس يرتل بصوت حزين اثر بي جداً واذا كانت الريح تهب بقوة كانت نقط الشمع الذائب تسقط على يدي فتؤلمني ومع ذلك كنت اتمنى من صميم الفؤاد ان لا ينتهي هذا الاحتفال نظراً لما سيحل بي بعده ولكن واسفاه لم يدم الحال فحالما

انتهت الصلاة تقدم الملك من النعش حيث كانت الجثة موضوعة وقبلها بفمه وأتت اللصوص وراءه الواحد بعد الآخر وكلهم قبلوها نظيره وصرت ارتعش من الفكر بانه سيأتي دوري أيضاً فاختفيت وراء الذين انتهى دورهم ولكن الملك رآني وقال لي

— نقدم اذاً الا ينبغي عليك ان تقبله بعد كل ما عملت به ؟

أهذا هو القصاص الذي كنت مزمعاً ان اتكبده ؟ فانني احلف لك يا سيدي بانها ليست لعبة اولاد تقبيل جثة أتهمت بقتلها فتقدمت نحو النعش شاخصاً بهذا الجسم العديم الحراك واحنيت رأسي وتقدمت لالثم الثغر واذا بلص وضع يده على رقبتي فالتصق فمي بفم الميت واشعرت برجفان جسمي وارتعاشه ارتعاشاً كلياً ولا اعلم ماذا اصعد على زلعومي ومسكني به في ذلك الوقت فهنيئاً للنساء لانهن سعيدات لانهن عند حدوث حادثةٍ كهذه يغشى عليهن

ثم أنزلت الجثة القبر ورموا عليها باقة من الزهر وخبزًا وتفاحةً وبعض نقط من الخمر وواروا الحفرة سريعاً وحينئذٍ التفت أحد اللصوص وقال

— انا نحتاج عصاتين لاجل الصليب

فاجابه الملك

— كن مسرورًا فسنضع عصي الميلورد

فتأمل اذاً ما حل بي عند استماع هـذا الكلام اي عصي ؟ وما العلاقة بيني وبين العصي ؟ وبينما انا في هذه التأملات اشار الملك شبوقجيه فركض نحو المكتب واحضر عصوين طويلين من شجر الغار واعطاهما للحاج استافروس فاخذهما وحمل النعش لحد القبر ورفعه من جانبٍ وابقى الجانب الآخر على الارض وقال لي وهو يتبسم

— انني استغل لاجلك ! فارجوك ان تنزع حذاءك

واذا عرف ما يخاملني من الخوف والارتعاش اجابني على السؤال الذي لم اتجاسر بان اقوله له بل فهمه من خوفي

انني اكره كل القصاصات العديمة الفائدة فلهذا السبب ساقاصك الآن قصاصاً

لا نلتزم بعده ان نحرسك في المستقبل وانني اتأمل انه بعد ضربك عشرين عصاً على رجليك لا يعود يلزمك حارس وتزول محبتك للفرار موقتاً فاني اعرف هذا العذاب واعرف بالتجربة ايضاً انه لا يميت ولكنه يؤلم كثيراً فانك ستصرخ وتستجير وسيسمعك باسيلي من قبره ويكون مسروراً منا .

فعند استماع هذا الخبر اتاني فكري بان اهرب قبلما افقد المقدرة ولكن ارادتي أصبحت ضعيفة جداً فانهضني الحاج ستافروس عن الارض كما أنهض حشرة صغيرة ولم أشعر الا وقد رَبطت ونزع نعلاي من رجلي ولا أعلم على أي شيء اسندت رجلاي ولا كيف منعنا عن الرجوع الى الوراء حين الضرب بل كل ما كانت اعلمه هو اني ملقىً على الارض وعصايتان دائرتان في الهواء الواحدة عن اليمين والاخرى عن الشمال فاغمضت عيني وانتظرت ومن المؤكد فاني لم انتظر أكثر من عشر الثانية ومع ذلك في هذه البرهة القصيرة ودعتُ أبي وقبلت ماري آن وأرسلت الف لعنه لتتوزع بين ما دام سيمون وجان هاريس فلم أغب عن الصواب ولا لحظة وكنت أشعر بكل الضربات الواحدة بعد الاخرى فالاولى كانت قوية جداً حتى ظننت اني لا أعود أشعر بالبقية فانها أجابتني في نصف رجلي وشعرت بالوجع في كل عظم ساقي والثانية كانت أقوى من الاولى وشعرت منها بان جمجمتي تكاد تتطاير والثالثة أخرجت الدم من رجلي لأول مرّةٍ ثم تتابعت الضربات الواحدة بعد الاخرى في ذات المحلات وباوقات متساوية فلم أصرخ في الاولى ولا في الثانية ولكني صرخت في الثالثة وهدرت في الرابعة وأننت في الخامسة وتوابعها وعند العاشرة لم يعد بي حيل فسكت ولكن احساساتي بقيت كما هي فاني لم اكن اقدر ان احرك جفني

ومع ذلك كنت اسمع أقل حركة ولم يفتني ولا كلمة مما قيل حولي وسأتذكر ذلك اذا تعاطيت فن الحكمة لان الاطباء في أغلب الاحيان يتكلمون بصوتٍ عال على مقربةٍ من المريض بالوقت الذي يقدر ان يسمعهم أيضاً ويفهم كلامهم وسمعت لصاً يقول للملك

— قد مات ! فلماذا تتعب شخيصين عبثاً بدون جدوى ؟

— لا تخف أجابه الملك فقد ضُربتُ ستين عصاً ومع ذلك بعد يومين رقصت الرومايك

— كيف عملت اذاً ؟

— استعملت دهان رجل ايطالياني يدعى لويدجي بك ثم التفت نحو اللذين يضربانني وسألهما

— كم ضربة لحد الآن ؟

— سبعة عشر

— هيا واعتنيا بالثلاث الباقيات

ولكن مهما اشتد الضرب فلم اشعر بالالم فالوجع اوقعني تقريباً في الفالج وبعد انتهاء الضرب فكت رباطات رجلي ولفت بلفافات مبللة ماءً باردًا وأعطيت قدحاً من النبيذ فرجع الغضب الى قبل رجوع قوتي ولا اعلم اذا كنت مثلي يا سيدي ولكني لا اعرف شيئاً مهيناً اكثر من القصاص بالضرب فقد خلقت في القرن التاسع عشر واعرف فوائد البخار والكهربائية واملك على اكثر من نصف اسرار الطبيعة واعرف كيف تشفى الحمى والجدرى ومع ذلك لم امنع ذاتي من ضرب العصاء فلو كنت عسكرياً ومكلفاً بالاعمال الجسدية الشاقة لكنت لا محالة قتلت رؤساي .

ولما رأيت نفسي جالساً على الارض وحولي الذين ضربوني والذين رأوني أضرب والذي أمر بضربي نفخ الغضب العار في جسدي حباً غريباً للانتقام فنسيت مستقبلي وكل شيء وابتدأت العن الحاج استافروس بكلام مؤثر جداً فلست خطيباً ولكن الغيظ والغضب الذي يصير الانسان شاعراً اعطاني مقدار ربع ساعة فصاحة الاشرار وبلاغتهم فكل ما يقدر الانسان ان يسلب به آخر من جهة احساساته قلته مضاعفاً لملك الجبال فوضعته مع الحيوانات الوحشية وانكرت عليه لقب الانسان ولعنته في امه وابيه وابنته وكل نسله واني اود ان اعيد لك حرفاً

بحرف كل ما قلته له لترى قوته ولكني لا اقدر على ذلك الآن اذ لست مغتاظاً فكنت اركب من كل الانواع ومن كل الكلمات التي لم تكن موجودة في القواميس ولكنها كانت مفهومة والبرهان على ذلك ضجيج السامعين ولكني عبثاً كنت احاول تهييج ملك الجبال فلم تتغير ملامحه الاصلية انما علامة الاحتقار كانت تعلو قليلاً على وجهه فهذه الهيئة اثرت بي جداً حتى اني نهضت بغتة على رجلي الدميتين وانتشلت طبنجة من زنار احد اللصوص وصوبتها على ملك الجبال واطلقتها باخف من لمح البصر وسقطت على ظهري قائلاً

— لقد انتقمت لذاتي

ولكنه هو بذاته انهضني عن الارض فنظرت اليه بتعجب كما لو كان خارجاً من الجحيم ولم ارَ عليه علامة الغضب بل كان يتبسم نظير الشيطان ومع ذلك رصاصتي قد اصابته والبرهان على ذلك الدم الذي رأيته على طرف جبهته ولكنها لم تخدشه الا قيلاً ولست اعلم اذا كان سبب ذلك رداوة البارود او مرور رصاصتي على العظم بدون ان تخرقه .

فهذا الوحش الابدي اجلسني بلطف على الارض ومسك باذني قائلاً

— لِمَ تحاول المستحيل يا غلام ؟ فكم مرة قلت لك اني معتاد على اطلاق الرصاص وانك تعرف اني لا اكذب ؟ فابراهيم باشا أمر باطلاق الرصاص على سبع مرات واني متأكد انك لست اقوى من سبعة مصريين ولو كان أمي التي كنت تحتقرها من هنيهة لم تخلقني هكذا لكنت قُتلتُ منذ زمن طويل فان هذه الاشياء تفكرني الآن بالشبوبية حتى ان اطرب من استماع صوت البارود ومع ذلك فاني اسامحك هذه المرة ولكن من كون ليس كل رجالي قادرين نظيري على احتمال اطلاق الرصاص فتستعمل ليديك ما استعملناه لرجليك ولا شيء يمنعنا من ان نبتدىء به الآن ولكني أوخره للغد اكراماً لصحتك ألا ترى الآن ان ضرب العصاء قصاص لطيف لا يميت وانت الآن ذاتك قد برهنت لنا بان الرجل المجلود يساوي اثنين

ومع ذلك كن مستريح البال فحال وصول فديتك اشفي جروحك فانه لا يزال عندي من مرهم لو يديجي بك فهذا الدهان يشفي باقل من يومين وبزيل كل اثر فنقدر اذاً ان تذهب الى دعوة القصر بدون ان تعلم الراقصات بانهن يرقصن مع رجلٍ مجلودٍ مؤخراً .

ولكني لست يونانياً لاحتمل الاهانات فأريت قبضتي للملك وصرخت من كل قواي .

— لا يا خواجة ملك الجبال فديتي لن تدفع أبداً فانني لم اطلب الدراهم من احدٍ فلا تنال مني غير رأسي وهو لا يفيدك شيئاً فخذه من الآن وأرحني من عذاب رؤيتك وبهذه الواسطة ايضاً نقصد وتوفر اكلي عن خمسة عشر يوماً فلا تتأخر اذاً واقطع رأسي فانه الربح الوحيد الذي تناله مني

فتبسم وهز كتفيه قائلاً

لو سمعت منك الآن لتأسفت على ذلك بعد ثمانية ايام لان الانكليزيتين ستدفعان فديتك وهو من المؤكد عندي فماذا يقال عني يا ترى اذا قتلتك اليوم وأتت فديتك غداً ؟ فيشيع الخبر باني اخلفت كلامي ولا تعود اسراي تطلب فديتهم بل يسلمون حالهم للذبح .

— هل تظن ان الانكليزيتين قد دفعتا لك شيئاً ؟ بلى لقد دفعتا لك ما تستحق قبضه

— متشكر الطافك والطافهما

— ستكلفك فديتهما ثمانين الف فرنك ! فستدفع من جيبك الخاص ثمانين الف فرنكاً يا ايها الملك !

— لا تتلفظ بكلام كهذه فنظنك جننت

— لم اقل الا الصحيح أتتذكر اسمي اسيرتيك ؟

— لا ولكنهما مكتوبان عندي

— انا اقول لك ما هو اسماهما فالسيدة تدعى مادام سيمون

— نعم

— شريكة محل بارلي في لوندرا

— مستلم دراهمي ؟

— نعم

— من اين تعرف اسم مستلم دراهمي ؟

— لِمَ كتبت تحريرك امامي ؟

— ما يهمني ذلك فانكليزيتان لا تقدران ان تسرقاني فانني اشتكي الى المحاكم

— تخسر لان معهما وصلاً منك

— صحيح ولكن كيف اعطيتهما وصلاً ؟

— لانني اشرت عليك بذلك

— اواه منك يا كلب يا تعيس يا دني ! فانك خربتني ! ثمانين الف فرنك فانني مسئول عنها كلها ! ولو كان محل بارلي بنك الجمعية لما فقدت غير حصتي ولكني الآن سافقد الكل وهل تؤكد انها شريكة محل بارلي ؟

— نعم اوكد اني سأموت اليوم !

— لا لا فانك لا تموت الا غداً لانك لا تعذب بعد كما يجب فستتعذب بما يساوي ثمانين الف فرنك فأي عذاب يا ترى اقدر ان اخترع ! الموت ؟ لا لا ! فانة لا يساوي هذه القيمة فما عملت لذاك الذي سلبني اربعين الف فرنك ؟ لم يتعذب الا ساعتين ومات ولكني سأجد الآن عذاباً اشر واطول ولكن لربما يوجد محلان بذات الاسم ؟

— كاڤنديس سكوير ٣١

— نعم هناك ! لِمَ لم تخبرني بذلك يا خائن فكنت اطلب منهما ضعف القيمة فتدفعانها بدون ان اعطيهما وصلاً ! لالا هذه آخر مرة ! وصلني من مادام سيمون

ماية الف فرنك ! أي جملة واي عبارة ! ولكني لم اختم المكتوب ولكن امضاي يساوي الختم فقد ارسلت عشرين حوالة بالامضا فقط ! لِم طلبت مني هذه الوصل ؟ وما كنت تنتظر من هاتين المرأتين ؟ خمسة عشر الف فرنك فديتك ؟ اواه ان محبة الذات منتشرة في كل الدنيا فقد كان من اللازم ان تخبرني بذلك واكون تركتك بدون فدية ! ثمانين الف فرنك ! اتعرف هذا المبلغ يا تعيس ؟ كم ليرة وكم ريالاً فقد سلبتني غنى فاحشاً وسلبت ابنتي الشخص الوحيد الذي أحبه فانني أتعب واشقى لأجلها فانني ادور الجبال كل السنة لأخذ ار بعين الف فرنك فانك قد سلبتني سنتين من حياتي فكأني قد نمت أو مت مدة سنتين !

أجل فاني وان لم أعد أنا من النجاة ولكني كنت مسروراً من غضب هذا الشخص العديم التأثير فكنت أقول لذاتي بكل مجدٍ وعظمةٍ سأموت بالعذاب ولكني حاكم حاكمي وجلاد جلادي !

الفصل الثاني عشر

جان هاريس

فكان ينظر الملك الى موضوع انتقامه كرجل لم يذق الاكل منذ ثلاثة ايام وامامهُ مائدة مفتخرة فكان يتأمل بكل صحن على حدته أي بكل عذاب ولا يعلم بما يبتدىء فكان يضرب بقبضته على رأسه كمن يريد ان يخرج شيئاً هذا ولكن افكاره كانت تأتي بسرعة زائدة وتذهب حتى انه لم يعد يقدر ان يعتمد على رأي واحد

— تكلموا اذاً ! صرخ باتباعهِ وأبدوا أراءكم فما الفائدة منكم يا ترى اذا كنتم لا تقدرون ان تعطوني فكراً هل انتظر رجوع الكورفي او خروج باسيلي من القبر ليجدان لي عذاباً يساوي ثمانين الف فرنك ؟

فحينئذ التفت الشبوقجي وقال لمعلمهِ

— عندك ضابط ميت وآخر غائب وغيره جريح فاعطِ وظائفهم للذين يجدون

لك شر العذابات

فتبسم الحاج ستافروس ووضع يده على ذقن الولد وقال

— بالواقع انك طماع ولكن الطمع يدل على الاقدام والشجاعة فقد اعتمدت على ما قلته والآن لكي أكافيك انت على هذا الرأي فانك اول من بيدي فكره فان أحسنت فباسيلي لا يكون له خلفاً غيرك

— رأيي قال الولد ان اقلع كل اسنان الميلورد وأضع له لجاماً في فمهِ واركض به حتى يسقط من التعب

— رجلاه ضعيفتان جداً فانه يسقط في ثاني خطوة فهذا الرأي لا يوافق هيا انتم ياتامبوريس و ياموستاكا و يا كولتزيدا و ياميلونين تكلموا وبدوا أفكاركم

— رأيي قال كولتزيدا ان اكسر بين ابطيه بيضاً سخناً وقد جربت هذه العمليه بامرأةٍ فسررت منها جداً

— ورأيي أنا قال تامبوريس ان اطرحهُ على الارض واضع على صدره صخراً وزنه خمسمائة ليبرا فيخرج الدم من فمه ومنخريه حتى يموت

— ورأيي أنا قال ميلونين ان اضع له خلاً في انفه وادخل شوكاً بين اظافره فيعطس من الالم ولا يعلم اين يضع يديه

ولكن موستاكا طاهي العصبة ابدى رأيه بان يشويني على نار خفيفة فسر الملك عند هذا الاختراع ولاحت على وجهه علامات الفرح والراهب الذي كان حاضراً يسمع الآراء بدون ان يتكلم اخذته الشفقة عليَّ وساعدني على قدر فطنته وذكائه فقال

— ان موستاكا وحسن بربري فانه يقدر على تعذيب الميلورد بدون ان يشويه حياً فاذا اطعمتموه من اللحم المملح بدون ان تسقوه ماءً فيتعذب كثيراً ومدة طويلة وبينتقم هكذا الملك من فريسته بدون ان يغضب الرب فهذه نصيحة انسان خالي الغرض اراد مراضاة الجميع لان الدير قد أخذ حصته من المبلغ

— كفى كفى ! أيها الشيخ المحترم صرخ القهوجي قائلاً فان عندي رأي احسن

من الذي أبديته فاني احكم على الميلورد بأن يموت من الجوع وأما الآخرون فليعذبونه كيفما شاؤا فلا اضادهم في ذلك ولكني أحرص فمه فلا أدع فتات الخبز ولا قطرة ماء تدخله فالتعب يزيد جوعه وجراحهُ تضاعف عطشه فما تقول يا سيدي بهذا الرأي الا استحق ان اكون خلفاً لباسيلي ؟

— اذهبوا عني كلكم فلو كان هذا المنكر المعروف قد سرق المبلغ منكم لكنتم تفتكرون احسن وعلى كل حال فخذوه الآن والعبوا به ولكن حذار من ان يموت فانه لا يقتل الا بيدي فسأخذ الثمانين الف فرنك نقطاً من دمه الواحدة بعد الاخرى

فلست أعلم بأي حبال ورباطات ليتعلق الانسان بالحياة فاني وان كنت متأكداً الموت وافضله بغتة لا تنصل من العذاب مع ذلك شعرت بفرح داخلي عند استماع كلام الملك بتأجيل مماتي والتهبت شرارة من الامل في ضميري . وباشارة من الملك حملني اربعة من اللصوص وأخذوني من المعسكر حيث كان سوفوكليس نائم فاستيقظ من استماع انيني وتنهدي ونادى رفقاه واستفهم منهم ما السبب وطلب منهم ان يراني عن قرب فوضعوني بجانبه على الارض

— يا ميلورد قال لي سوفوكليس الطريح على الفراش انا نامر يضان ولكني سأشفى قبلك ومع ذلك قد افتكر الملك بأن يعين خلفاً لي فكم ينكرون المعروف و يضيعون الجميل ولكنك الآن بتنهدك و بصراخك ستفهم القوم بان سوفوكليس لم يزل حياً فبربطون الآن يديك ورجليك وأنا اتكفل بتعذيبك بيدٍ واحدة عذاباً لا يقدر ان يقوم به أقوى هؤلاء اللصوص واحسنهم عافية .

فربطتُ اكراماً للمريض وابتدأ يقطع شعري الواحدة بعد الاخرى فافتكرت بان الجريح يريد ان يريحني من العذاب ساعةً من الزمان بدعوى انه يُريد قلع شعري فنزع شعرة من الرأس كوخز دبوس لا اكثر ولا اقل فذهبت اذاً العشرين شعرة الاولية بدون ان اتأسف عليها لا بل تمنيت لها سفراً سعيداً ولكن التزمت بعدها ان اغير النغم لان رأسي اخذ يوجعني وحالاً أصابني دوارٌ شديد فاردت ان

احك رأسي بيدي ولكني كنت مربوطاً فصعد كل دمي الى دماغي وصرت كلما مرت يد سوفوكليس الى رأسي اشعر برجفان في كل جسمي فصرت انقلب على الارض واصرخ واطلب العفو وتندمت على ضرب العصي ولم يكف سوفوكليس عن العمل حتى انهكت قواه فمسك بكل شعري وشده شدة قوية كاد يغمى عليَّ منها وسقط ملقى على فراشه الرثيث البالي

— تعال معي الآن قال لي موستاكا وسترى مَن منا يستحق التعزيز والاكرام

وحملني كريشة بين يديه ووضعني قرب تلة من الحطب وبعد ما فك رباطاتي ونزع عني كل ثيابي ما عدا البنطلون قال لي

— انك أجير عندي فتساعدني على طبخ غداء الملك

فاشعل الحطب ورماني على الارض على بعد خطوة من النار فلم اقدر على احتمال الحرارة وزحفت بعيداً عنها ولكن موستاكا ارجعني بضرب رجليه الى محلي الاول وقال لي

— انظر وتعلم هوذا الآن خروفان يكفيان عشرين رجلاً فالملك ينتخب اللذيذ منهما ويعطي الباقي لاصحابه واما انت فلا تأكل الا بعينك . فصارت معدتي ايضاً احد معذبي وكان موستاكا يزيد عذابي بتحريكه الطعام امامي فكانت تفوح منه رائحة شهية تحرك بي شهوة لا اقدر ان اقوم بواجبها ولكنه لحظ بغتة بانه قد نسي ايدام الطعام وركض ليأتي بالملح والبهار — وترك الطنجرة تحت عنايتي فاول فكر فاجاني ان اسرق قطعة من اللحم ولكن كانت اللصوص على بعد عشر خطوات مني فقط فلا يدعوني اكلها وافتكرت بانه لو كان معي من الزنيخ لكنت وضعت منه في الوعاء فمددت يدي الى جيب بنطلوني فوجدت العلبة فكدت أطير من الفرح وأخذت قبضة منها ورميتها في الدست وحين رجوع موستاكا كانت لا تزال يدي محدودة فوق الوعاة فمسكها وتفرس بعيني وقال لي بصوت تهديدي

— أنا عارف ما عملته فانك رميت سحراً في غداء الملك

— ماذا ؟!

— لا يهمني فالملك اسحر منك فهو يعرف الذي يضره والذي ينفعهُ فتاطعمه واطعم الكل واكل أنا أيضاً وأما انت ياسيدي الميلورد فلا تذوقه مطلقاً .

وتركني قرب النار بعدما اوصى بي جماعة من اللصوص كانوا يشعلون النار فصرت اتلظى من الحر وكنت كلما أردت الابتعاد من جانب النار يصرخون بي قائلين

— حذار حذار فانك تبرد !

ويضربون باخشاب شاعلة ليرجعوني الى محلي فانشوى ظهري من النار وصرت أشم رائحة كريهة من جلدي ومع ذلك كنت افرك يدي فرحاً كلما افتكرت بان الملك سيأكل من الغذاء الذي حضرتهُ لهُ وصرت اقول لذاتي

— قبل انقضاء النهار لا بد من حدوث اخبار مهمة في اليارنيس

ولما رأيت ضيوف الحاج ستافروس آتين بوجه ضحوك وأعين وقادة افتكرت بذاتي

— كل فرحكم وسروركم سيتحول الى اكدار واتراح وستلعنون كل لقمة اكلتموها من هذا الغذاء الفاخر .

لانهُ حينما يكره الانسان آخر لاسباب معلومة يسر جداً اذا رآه آتياً ضاحكا وقد غرست في قلبه بذارات الموت وهذا السرور يكاد يضاهي الفرح الذي يشعر به الطبيب الذي يرى عليلاً يقدر على شفائه ولكن لم تطل افكاري وتأملاتي البغضيه فانها انقطعت بضجيج وغوغاء غريب ونبيح كلاب ضارية فالتفت ورأيت رسولاً آتياً ركضاً وكل الكلاب معلقة باذياله فعرفتهُ حالاً بانه ديمتري ابن كريستوديل وكان يصرخ قائلاً

— اين الملك ؟ ينبغي ان ارى الملك

وبعدما رمت اللصوص الاحجار على الكلاب وأرجعتها عن مطاردة الرسول كان ديمتري قد صار على بعد عشرين خطوة مني فناديته بصوتٍ حزين فاندهش من الحالة التي رآني بها وصرخ

— المجانين ! مسكينه !

فقلت لهُ

— من اين آتٍ ياعزيزي هل تحضر فديتي ؟

— لاتخف ياسيدي فان معي اخباراً مسرة جداً لاجلك ولكنها ردية ومكدرة لاجلها ولاجلي ولاجله ولاجل كل الناس أينبغي ان ارى الحاج ستافروس بدون تضييع ولا دقيقة ولحين رجوعي لا يقدر أحد ان يضربك أسمعتم انتم كلكم فمن يلمس الميلورد بيده لمساً فقط يقطعه الملك قطعاً و يرميه للكلاب فحذار اذاً وخذوني عند الملك !

فصوت هذا الخادم كان محتوياً على نفحة غريبة اندهشت منها حراسي ولم تتجاسر على مخالفته فزحفت بعيداً عن النار وجلست مستريحاً على الصخر البارد منتظراً رجوع الحاج ستافروس

وبعد هنيهة من الزمان اتى اليّ ملك الجبال ولم يكن اقل تأثيراً من ديمتري واخذني بين ذراعيه وحملني برقة الى هذه الاوضة المشؤومة التي فيها قبر باسيلي ووضعني على سجادته الملوكية باعتناء الامهات وابتعد عني خطوتين الي الوراء وهو ينظر اليّ بغضاً وشفقةً بوقتٍ واحد وقال لديمتري

— هذه هي المرة الاولى التي لم اقاص فيها مذنباً فموت باسيلي هفوة لا تذكر وقد سامحته عليها وعلى اطلاقه الرصاص عليّ ايضاً ولكنه سرقني فقد انقص جهاز (دوطه) فوتين ثمانين الف فرنك فكنت افتش على عذاب يضاهي هذا المبلغ العظيم فكنت قد وجدت .... ولكن يا للتعاسة ! ا كان من اللازم ان اعذبه بهذا المقدار ؟ فانها ستتعذب نظيره فانها اذا ضربت عشرين حصاً على رجليها النحيفتين فلا أعود أراها ! الرجال لا تموت من الضرب ولكن النساء ! او بالحري بنت خمس عشر سنة !

وبعد ما اخرج اللصوص جميعهم خارجاً وفك بكل اعتنا رباطاتي المدماة التي كانت على جروحي ارسل شبوقجيه ليحضر له دهان لو ببريمي بك وجلس امامي على العشب الرطيب ومسك رجلي بيديه وصار يتأمل بجروحي شيء لا يصدق! رأيت الدمع بعينيه ! !

— يا أسفاه عليكِ يا ابنتي المسكينة ! فقد تعذبت كثيراً يا سيدي فسامحني لاني وحش هذه الجبال فمن كوني عسكرياً فقد تعلمت القساوة من سن العشرين ولكنك تعلم بان نيتي حسنة لانني اتأسف الآن على ما فعلته فانني اتعس منك لاني ابكي واما انت فلا دمع بعينيك فقد ازمعت ان اطلق قيادك الآن بدون تضييع ولا دقيقة . لا لا لا فانك لا تقدر ان تذهب هكذا فينبغي ان اشفيك قبلاً فالدهان الذي عندي سريع الفعل وسأعتني بك كابني وان شاء الله ترجع اليك صحتك باقل من القليل لانه من الضروري ان تكون قادراً على المشي غداً ما ذا يضرها اذا بقيت يوماً آخر في يد صاحبك ؟ بحياة كل عزيز عندك لا تفه بنت شفة من كل ما أجريناه معك اليوم فانك تعلم باني لم اكن ابغضك وقد قلت لك ذلك مراراً عديدة حتى اني كنت ائتمنك على اسراري واتكل على مشورتك وبقينا أصحاب لحين موت باسيلي فاتأمل اذاً ان ساعة من العذاب لا تنسيك اياماً عديدة من الراحة وحسن الالتفات فلا تمزق قلبي الابوي فانك شاب لطيف مهذب وصاحبك يكون نظيرك لا محالة

— ومن تقصد بكلامك هذا ؟

— من هذا اللعين هاريس ! هذا المفترس البنات ! هذا الذي أتمنى من صميم الفؤاد ان امسكه وأسحقه معك واجعلكما — رماداً يتطاير في فضاء هذه الجبال فانتم أيها الافرنج لا تقدرون ان تدافعوا عن انفسكم علناً وقوةً بل تظهرون مقدرتكم على البنات فاقرأ ما كتبه لي وجاوب وقل لي أي مجازاة ليستحقها مقابلةً لهذا الجرم العظيم والخطية الجسيمة التي ارتكبها ؟

ورمى لي بعنفوان وشراسة مكتوباً يكاد يتمزق فعرفت الخط لاول نظرة وقرأت ما يأتي :

الاحد في ١١ ازار على ظهر البارجة ذي فانسي في مرفاسا لايس

يا حاج ستافروس

فوتين بين أربع مدافع اميركانية وانها تبقى رهناً عندي ما دام هرمان شيلتز عندك وكما تعامل صاحبي اعامل ابنتك فعين بعين وسن بسن ورأس برأس فجاوب

سريعاً والا فأنا آتي وأراك جان هاريس

فلم أتمالك نفسي من ان اصرخ فرحاً

— عافاك الله يا عزيزي ! فكم كنت حاقداً عليك ! ولكن لمَ تأخرت لحد الآن عن مساعدتي ؟ أتعرف السبب يا ديمتري ؟

نعم يا سيدي فانه كان غائباً يصطاد لصوص البحر فرجع البارحة صباحاً من نكد طالعنا ويا ليته لم يرجع ....

— عافاك الله يا هاريس ! فانه لم يتأخر عن تخليصي ولا يوماً واحداً ولكن من اين يا ترى القى القبض على ابنة هذا الفاجر الغدار ؟

— عندنا يا سيدي ألا تعرف فوتين ؟ فقد اكلت معها عدة مرار عندنا

— اذاً ابنة ملك الجبال كانت تلك التلميذة ذات الانف المسطح التي كانت تتنهد حينما تنظر الى جان هاريس !

واستنتجت حالاً بان اسر هذا الابنة لم يكن عسراً وبعد ما رجع الشبوقجي ومعه قنية مملوءة دهاناً اخضر ابتدأ الملك يضمد جروح رجلي كجراح تعاطى المهنة عشرين عاماً وبرع فيها فكان يلف الرباطات حول الجراح بخفة ورشاقة حتى بالجهد كنت أشعر بها ومع ذلك كنت أرى مسطوراً في عينيه ما يأتي :

— أواه لو اقدر اخنقك :

وكان يفرز الدبابيس بحذق النساء الخائطات ولكني قرأت فكره

— أواه لو أقدر ان أغرز خنجري في قلبك

وعندما انتهت العملية مديده نحو البحر من جهة مرفاء سالامين وقال وهو يهدر كالوحوش

— لم اعد اذاً ملكاً فاني لا أقدر ان أهدي غضبي وأشفي غليلي من فريستي ! انا الحاكم والآمر انا الذي عند مجرد ذكر اسمه ترتجف الناس هولاً ورعبة اصبحت المحكوم عليه والخائف من تهديد رجل أميركاني ! فسيضحكون علي لا محالة ويقولونه لكل الناس وستتكلم عنه الجرائد ولربما الكتب أيضاً ! لمَ تزوجت ؟ هل ينبغي ان يكون لي أولاد وانا في هذه الحالة ؟ فقد خلقت لاقتل الناس والعساكر

وليس لاربي البنات الصغار ! فالرعد ليس لها أولاد والمدافع ليس لها أولاد أيضاً فلو كان لها بنت لما كنا نخاف الصاعقه ولكانت الكل تسقط في نصف الطريق فسيضحك جان هاريس مني فلو أقدر ان اشهر عليه الحرب ! .... فقد فعلت ذلك كثيراً وكنت دائماً منتصراً ولكن ابنتي الآن في مركب العدو ! ياولداه هل تعرفها اذاً يامسيو هرمان ؟ لماذا لم تخبرني ان مسكنك عند كريستوديل فما كنت طلبت منك شيئاً ولكنت تركتك حالاً اكراماً وحباً بفوتين ! انني اعلمها لغتك لانها ستصير اميرة المانية . الا تقدران تصير أميرة ؟ فمن كونك تعرفها اخبر رفيقك ان لا يؤذيها بشيء وهل لك قلب ان ترى الدمع يسقط من عينيها ؟ فانها لم تفعل معك شراً . فاذا كان ينبغي مجازاة احد بسببك فاكون انا وليس هي . فارجوك ان لا تقل لجان هاريس بان رجليك قد تمزقتا من الصخور يعفو عنها وبعد ذلك اعمل معي كما يحلو لديك ..... فقاطعه ديمتري بالكلام وقال له

— ياليت المسيو هرمان لم يجرح ففوتين ليست بامان بين هؤلاء الهراطقه فاني أعرف هاريس انه يفعل كما يخطر بباله

فظنون العاشق اثرت بالوالد جداً حتى انه بدون تأخير دقيقة قال لي

— هيا فلنذهب من الآن ومن كونك لا تقدر على المشي فساحملك انا بذاتي اذا احوجت الضرورة الى اسفل الجبل حيث ارسل لك حصاناً أو عربة أو محملاً فساهي كلما يلزم ولكنك اخبره بانك حر منذ الآن فاحلف لي بحياة والدتك وكلما هو عزيز لديك بانك لا تحدث احداً عن الآلام والاحزان والجراح التي سببتها لك

فاعتمدت على فعل ارادته حتى اخلص من هذه الجبال لان كل عذاب اهون علي من مرافقة جلادي وزد على ذلك باني كنت اخشى حدوث مانع آخر يفرق بيني وبين حريتي فقلت للملك

— هيا بنا واني أحلف لك على كلما هو مقدس بان لا احد يلمس شعرة من رأس ابنتك

فانهضني بين ذراعيه وحملني على اكتافه ولما صعد بي سلم مخدعه ركضت

اللصوص كلها امامه قاطعة الطريق وموستا كا أصفر اللون كمصاب بالهواء الاصفر اقترب من الملك وقال له

— الى اين تذهب بالالماني فقد وضع لنا سحرًا في الاكل فكلنا نتعذب كما لو كنا في الجحيم ونكاد نموت بسببه فليمت قبلنا ! وليمت قبلنا !

فسقطت اذًا من علو امالي وخاب كلما رجوته فوصول ديمتري ومكتوب جان هاريس وتذلل الحاج ستافروس وكل هذه الحوادث انستني الماضي وصرت افتكر بالمستقبل ولكن عند نظري موستا كا متغير اللون والهيئة افتكرت بالسم الذي وضعته في الطنجرة وصرت اشعر بان تأخير دقيقة واحدة تكفي لهدم كل ما بنيناه فتعلقت بالحاج ستافروس وضممت ذراعي حول عنقه وحلفته بانه يرسلني بدون تأخير وقلت له

— اين مجدك ؟ فاظهر لهؤلاء الكلاب بانك ملكهم فلا تجاوبهم لان الكلام يذهب عبثًا بل لنذهب سريعًا ! ألا تعلم بان لك فائدة لا تقدر اذا خلصتني ؟ فابنتك تحب جان هاريس وقد اخبرتني بذلك بعد ما كنت قد تأكدته من ملاحظتها

— انتظر قليلاً فستذهب وبعد ذلك نتحادث

ووضعني بلطفٍ على الارض وركض الى نصف اللصوص الهائجين وصرخ بهم قائلاً

— انكم لمجانين ! فمن يلمس الميلورد اكون خصمه ! ما تظنون بانه قد رمى لكم في الاكل ؟ ألم اتغدى معكم ؟ هل ياترى اصبحت مريضًا ؟ فدعوه يخرج من هنا فانه رجل شريف مهذب ! وهو صاحبي ! !

وقبلما ينتهي من الكلام تغيرت هيئته والتوت رجلاه تحت ثقل جسمه فجلس بجانبي وقال لي بصوت واطٍ يدل على التوبيخ اكثر مما يحتوي على الغضب

— لِمَ لم تخبرني بانك قد سممتنا ؟

فمسكت يد الملك فكانت باردة ونظرت ملامحه قد تغيرت وهيئته الجامدة قد تأثرت فعند هذا المنظر الغير المنتظر فقدت قوتي وشعرت باني ميت لا محالة وخاب كل املٍ لي في الدنيا لان الشخص الوحيد الذي كان يقدر على خلاصي ويريده

اصبح في النزاع وعن قليل يرافق الموتى فسقطت على الارض وبقيت بدون حراك بجانب جسم الشيخ المثلج وكان موستا كا وغيره يمدون ايديهم نحوي ليمسكوني ويقاسموني عذاباتهم والحاج ستافروس لم تعد معه قوة ليدافع عني فكان يشهق من وقت الى اخر شهقة تحرك كل جسمه كبلطة حطاب تهز سندبانة كبيرة واللصوص اذ اقتنعوا انه في نزع البين وبان هذا الشيخ الذي لا يغلب سيسقط تحت حكم عزرائيل انحلت كل رباطاتهم برئيسهم رباطات مكنها حب المكسب أو الخوف أو الامل أو المحبة فاليونان هم الوحيدون الذين يعرفون ان يستفيدوا عند الضرورة ممن هو اقوى منهم ولكنهم لا يسامحون ابدًا رؤساءهم وعلم حينئذٍ الحاج ستافروس بانه لا يقدر ان يحكم احد على ستين يوناني بدون ان يتجازى فملكه لم يمتد دقيقة بعد فقدهِ قواه الطبيعية

فزيادة عن المرضى والجرحى الذين كانوا يظهرون لنا قبضاتهم ويشيرون الينا اشارات التهديد اجتمعت الاصحاء والشجعان من اللصوص حول ملكهم وحول قروي يدعي كوانتزيدا وهو الثرثار والاكثر كلامًا من كل العصبة بدون معارف ولا تهذيب ولا شجاعة احد اوليك الذين يختبئون عند الفعل ويحملون البيارق بعد الانتصار ومع ذلك فالنصر عبد للكثيري الكلام خصوصًا في مثل اوقات كهذه فكوانتزيدا كان يشتم ويجدف على جسد الحاج ستافروس كحفار يرمي التراب على تابوت الميت وكان يقول

— هوذا انت يا ايها الرجل الفريد والقائد الذي لا يغلب والملك القادر على كل شيء يامن يدعى عدم الموت والفناء ! ماذا كسبنا من مرافقتك ؟ ولاي شيء ! استخدمتنا ؟ فقد كنت تعطينا اربعة وخمسين فرنك شهريًا ! يالها من قيمة زهيدة ! وكنت تغذينا الخبز الاسمر والجبن المدود الذي لو رميته للكلاب لما تنازلت واكلته ! وكنت تجمع الدراهم وترسلها الى كل بنوكة الدنيا ! ماذا استفدنا من كل الانتصارات والدم الذي سفكناه لاجلك ؟ فقد كنت تستولي وحدك على الفدية والاسلاب ! فقد قضيت معك سنتين من الزمان وقد جرحت أربعة وعشرين مرة على حين لا تقدر ان ترينا خدشًا صغيرًا في كل جسمك ! ومع

ذلك لو عرفت كيف نقودنا أو كيف تختار لنا الغنائم الباردة لما حقدنا عليك ولكنك كنت تهجم بنا على الجيوش المظفرة وتسلمنا الى انياب الذئاب كانك كنت تود ان تراانا مدفونين حول قبر باسيلي فقد سلمتنا الى هذا الميلورد الملعون حتى وضع لنا سحرًا في الاكل ! فلا تتأمل انه ينجو الآن من بين ايدينا ! وقد عرفت لماذا تريد خلاصه ؟ لانه قد دفع فديته ولكن اخبرنا ماذا تفيدك هذه الدراهم ؟ اتأخذها معك الى الآخرة ؟ فانك مائت يا مسكين ! فالميلورد لم يعف عنك وحسنًا فعل فانك ستموت معنا أيضًا ! والآن يا اصحابي كلنا احرار ونحن الروساء لا نطيع امر كائن من يكون ولا نفعل الا ما يحسن لدينا ! فنأكل الخمر المأكولات ونشرب الذ المشروبات ونلتهم كل النبيذ الذي عندنا من ايجين ونحرق احراشًا برمتها لشواء الخواريف ونسلب المملكة ونأخذ آتينا ونحاصر جنائن القصر ! فدعوني افعل وما عليكم الا الاطاعة وانا اقودكم الى المحلات الموافقة وادبر لكم الانتصار والغنائم التي لا تعد ولا تحصى ! فلنبتدىء الآن برمي هذا الشيخ وصاحب الميلورد في الساقية

وبعد ذلك أقول لكم ما يجب ان نفعل ! ففصاحة كولتزيدا هذه كادت تذهب بحياتنا فان العصبة استحسنت مقاله وتهيجت بخطابه ومن كون الاثنى عشر لصًا اصحاب الحاج ستافروس القدماء والامناء له اكلوا على المائدة اصابهم المغص فكانوا يتعذبون ولا يقدرون ان ينفعونا بشيء ولكن من المستحيل ان يتقدم أحد ويأخذ الرياسة بدون ان يصير له اضداد ولما ظهر بان كولتزيدا سيصبح رئيس العصبة قاومه تامبوريس وغيره وانضموا الينا لانهم كانوا يفضلون ان يروا رئيسهم قائدًا شهيرًا مجربًا في عدة معارك من ان يكون رجلاً لا يعرف الا كثرة الكلام فقط وسبعة أو ثمانية آخرون اذ كانوا يعرفون ان الحاج ستافروس لا يعيش كثيرًا وانه سينتخب رئيسًا خلفه احد اللذين خدموه بامانة واذ كانوا متأكدين أيضًا ان اصحاب السهام يتممون ويعتبرون انتخاب الحاج ستافروس اكثر مما يعتبرون اصوات اللصوص الهائجين انحازوا الى حزبنا وجاؤا معنا (قلت معنا لاني والحاج ستافروس اصبحنا شخصًا واحدًا) فاجتمع تامبوريس ورفقاه والفوا طريقة للمدافعة وارسلوا ثلاثة منهم مستغنمين فرصة الغوغاء والاختلاف الى الترسخانة حيث اخذوا مؤنتهم من الفشيك

والبارود والبنادق ووضعوا طول الطريق عرض اصبع من البارود ورجعوا ودخلوا بين القوم فتعالت الغوغاء وأشتد الضجيج والصراخ وخرجت اللعنات من أفواه الجميع تعد بالوف الالوف والمدافعون عنا صاروا يحمون الفرقة ووضعوا جسمهم متراسًا عنا وبينما اللصوص بالقيل والقال اطلقت بارودة فاشعلت البارود الذي على الارض حتى اذ وصلت النار الترسخانة ارتفع الغبار وتعالت وتساقطت الصخور وأرتعدت الارض حتى ظننت الارض قد زلزلت زلزالها فكولتزيدا واصحابه اندهشوا من هذا الاندفاع والانفرقاع وركضوا نحو الترسخانة فحينئذٍ لم يضع تامبوريس ولا دقيقة بل حمل الملك الى محل امين من الفرقة وأخذني ورماني بقربه بينما كانت رفاقه قد قطعت الاشجار وسدت السلم واقامت المتاريس وحاصرت قبلما رجع كولتزيدا من اندهاشه واضطرابه .

فجيشنا كان مركبًا من الملك وخادميه وتامبوريس وثمانية لصوص آخرين وديمتري وانا فالجميع أربعة عشر شخصًا ثلاثة منهم لا يقدرون على المقاومة لان القهوجي كان قد سم أيضًا مع معلمه وكانت قد ظهرت عليه تأثيرات فعل السم ولكن كان معنا بارودتان لكل شخص ومن الخراطيش ما لا يحصى له عدد مع ان اعداءنا لم يكن عندهم من السلاح غير الذين يحملونه ولكنهم كانوا اكثر عددًا منا ويملكون على البرية جميعها فلم نكن نعرف عددهم تمامًا وعلى كل حالٍ فانهم لم يكونوا اقل عددًا من خمسة وعشرين أو ثلاثين نفرًا .

فليس بضروري ان اشرح لك هيئة الفرقة فانك تعرفها منذ زمن ولكنها تغيرت عن ذلك اليوم الذي اكلت به مع ما دام سيمون وماري آن لاول مرة فالاشجار كانت قد قلمت ولم تعد تحمينا بظلها ولم يعد البلبل يأوي الى أغصانها ليطربنا بالذ الانغام ولكن الشيء الوحيد الذي يهمك معرفته في الحالة الحاضرة بان صخورًا شامخة مستحيل الصعود عليها كانت عن يميننا وشمالنا فلم يكن لنا الا منفذان مخدع الملك حيث كانت الاعداء تهاجمنا والساقية حيث بعض اللصوص تسد علينا سبيل الهرب فكنا نقتبل الرصاص من الجهة الاولى ونرسل منه الى الثانية فلو كان لكولتزيدا ولرفاقه أقل المام بفن الحرب لهجموا علينا وهدموا المتاريس وقتلونا

ورمونا بالساقية ولكنهم اعتمدوا على اقتصاد البارود فوضعوا حولنا عشرين مهاجم فقط لاجل المحاصرة والمدافعون عنا لم يكونوا أيضاً اكثر فهماً واعرف بمواقع الطعن والضرب ولكنهم كانوا تحت قيادة رجل خاض المعارك مراراً وفاز بالنصر با كثرها فقتلوا من الاعداء لا أقل من خمسة أشخاص قبل سدول الليل والمتحاربون اذ كانوا يعرفون اسماءهم الواحد بعد الاخر كانوا ينادون بعضهم بعضاً فكان الواحد يطلق رصاصة باسم الآخر وهذا كان يجاوبه عليها برصاصة اخرى مع براهين دامغة فلم تكن الحرب بينهم الا كلاماً طويلا وقضايا منطقية حيث في بعض الاحيان تأتي رصاصة وتستخرج النتيجة .

فكنت ملقى في زاوية من الفرقة بأمن من الرصاص ابذل جهدي بترجيع ملك الجبال الى الحياة فكان يتعذب كثيراً و يتشكى من ظماء مقرون بوجع اليم في صدره ومعدته كانت تحارب عدواً داخلياً تريد طرده ولا تقدر على ذلك ومع كلما أصابه لم يفقد قواه العقلية فكان يوجه دائماً نظره الحاد الى مرفاء سالامين مفتشاً على حبس ابنته فوتين وقال لي بعد ما وضع يده المتلجة عليّ

— اشفني ياولدي العزيز فانك دوقتور وتقدر على نجاتي ولست اوبخك على فعلك لانك محق بقتلي فاني اوكد لك بانك لن تكون نجوت من بين انيابي لو لا هذا اللعين جان هاريس . ألا يوجد ما يطفيء نار حشاشتي ولا اقول هـذا حباً بالحياة فقد سئمتها ولكني اذا مت فستقتل ويقتل هاريس ابنتي هل تظن ان هذا الاميركاني يقوم بما هدد به ؟ ماذا قلت لي منذ هنيهة ؟ فوتين تحبه ؟ اواه منهـا المنكوده الحظ فقد ربيتها لتصير زوجة ملك فانني افضل أراها ..... لا لا اني مسرور بمحبتها لهذا الشاب فلربما يشفق عليها فانني أقتل كل اصحابي اذا احوجت الضرورة ولا أمد يدي لازعج امرأة تحبني ولو كانت تعرف مقدار ثروتها لما كرهت الموت ولكنها تجهلها فكان من اللازم ان اخبرها بذلك منذ زمن طويل فكيف اقدر ان اخبرها الان بان معها اربعة ملايين ! فاننا اسرى كولتزيدا فاشفني بحياة جميع القديسين لاسحق راس هذه الحشرة الصغيرة .

فلست طبيباً ولكني أعرف عن السموم مبادي علاجاتها فاستعملت اصابعي

كمنطق وأدخلتها الى زلعوم الحاج ستافروس حتى خرج اكثر السم من جوفه وحينئذٍ ابتدأ معه رد الفعل فاحمر جلد بشرته من الحرارة واسرع الدم بدورته واستعجل نبضه وتلون وجهه فسألته اذا كان احد رجاله يقدر علي فصده فربط ذراعه وفتح احد عروقه بين ضجيج البارود والرصاص بدرن ان يظهر عليه علامة الاضطراب والخوف ونزل منه لا اقل من ليبرة من الدم ثم سألني بصوت رقيق

— ماذا ينبغي ان افعل أيضاً ؟

فامرته ان يشرب دائماً حتى تزول اثار الزرنيخ من جوفه ولحسن الطالع دمجانة النبيذ التي اسكرت باسيلي كانت لا تزال باقية في الغرفة فهذا الشراب مزيج النبيذ والمـاء ارجع الملك الى قيد الحياة فكان يطيعني اطاعة الولد الصغير لاستاذه ولا ازال اتذكر بان عند أول قدحٍ ناولته اياه امسك بيدي وأراد تقبيلها وعند الساعة العاشرة تحسنت احواله ولكن قهوجيه فارق الدنيا من فعل السم فرميناه الى الساقية من علو الشلال

فلم يكن ولا جرحاً في اجساد المدافعين عنا ولكن معدتهم كانت قد فرغت تماماً والذي كان يهيج بهم الجوع الاعظام والدمجانات الفارغة التي كانت ترميها لنا الاعداء نكاية فكنا نجيبهم عليها باطلاق الرصاص فكل الليل لم يغمض لي جفن وانا اسمع ضجيج السكارى وانين الجرحى فكم تظهر الليالي طوالاً لمن لا يتأمل البقاء للغد .

وفي صباح الثلاثاء اظلمت السماء وفتحت ميازيبها فنزل المطر مدراراً وذلك قبل شروق الشمس واذ كنا مستيقظين حفظنا البارود من البلل ولكن المطر فاجأ العدو بغتة على غير انتظار وكانوا تقريباً كلهم سكارى فبدا لنا وجه النصر حتى اني مسكت بارودة وصرت اساعد اصحابنا واراد الملك ان يحذو حذوي ولكنه لم يقدر نظراً لصحته وقلت له بحريتي الاعتيادية بان هذا الضعف يطول معه كثيراً

وعند الساعة التاسعة ادار لنا العدو ظهره بغتة وسمعت صوت اطلاقات متتابعة ولكنها لم تكن مصوبة علينا فاستنتجت من ذلك بان قد كبست اللصوص من الوراء ولكن يا ترى من هو هذا الحليف الغير منتظر الذي كان يساعدنا ؟ وهل يجوز

ان نهدم متاريسنا ونهجم على الاعدا ونتحد مع حلفائنا ؟ فهذه بغيتي ولكن الحاج ستافروس ضادها بقوله ان المهاجم عسكر المملكة بعد ردهة من الزمان سمعت صوتاً اعرفه ينادي

— هيا ! هيا الى الامام !

ورأيت ثلاثة شبان مدججين بالسلاح الكامل وثبو كالاسود وسقطوا بيننا بعد ما هدموا المتاريس والحصون فعرفت هاريس ولوبستر وكان في يد كل واحد منهما غدارة مسدسة الطلقات وتأملت الرجل الثالث فكان جيكامو مديراً بندقية عسكرية وفندقها في الهواء كما لو كانت نبوتاً أو بلطة فكان هكذا مذهبه باستعمال السلاح الناري فالصاعقة لو سقطت الغرفة لما هدمت وارجفت اكثر من دخول هؤلاء الابطال الذين كانوا يوزعون الموت على الحضور كما لو كان ملك الموت عبداً لهم

فلم يروني ولا رأوا الحاج ستافروس وما كانوا ينظرون الا رجالاً لذبحهم فانذهل المدافعون عنا ولم يقدروا ان يحاموا عن ذواتهم من عظم الدهشة التي اصابتهم وعبثاً كنت احاول ان اخلصهم بصراخي لان صوت البارود وقرقعة السلاح وتهليلات المنتصرين سدت اذان هاريس فكان مع لوبستر وجيكامو يطلقون الرصاص ويركضون هنا وهناك ويعدّون قتلاهم كلٌ بلغته

— واحد قال لوبستر

— اثنين . ثلاثة صرخ هاريس

— أربعة . خمسة . ستة هدر جيكامو

والسادس كان تامبوريس تتطايرت جمجمته قطعاً تحت ثقل الفندق وسقط جسمه بدون حراك في التبع وهكذا كانوا يقتلون من كل جهة وناحية كقابضي الارواح فالريح اخذت برنيطاتهم عن رؤسهم فكان شعرهم يتطاير الى الوراء ويزيد منظرهم هولاً واعينهم كانت تقدح شراراً حتى يحتار الانسان ولا يدري اذا كان عبداً لايديهم أو لعيونهم وعند ما انتهت المحاربة ولم يعد امامهم الا بعض الجرحى المطروحين على الارض تنفسوا الصعداء وهاريس أول من افتكر بي فصرخ بكل قواه

— هرمان اين انت ؟

— هنا

فركض اليّ حالا الثلاثة ابطال والملك مع كل ضعفه اسند يده على كتفي واتكأ على الصخر ونظر شاخصاً الى هؤلاء الرجال الذين لم يفعلوا ما فعلوه الا لقتله وقال لهم بصوت جهير

— انا الحاج ستافروس !

فمنذ زمن طويل كان اصحابي منتظرين وقوع الحاج ستافروس بين ايديهم ليأخذوا منه بتار بنتي ميسترا وبتاري وبتار عدة آخرين ومع ذلك لم اضطر ان امسك بيدهم لامنعهم عن قتله بل كان باقياً في هذا الشخص من العظمة ما ازال كل محبتهم للانتقام وعوضها بالاندهاش فكانوا ثلاثتهم شباناً وفي هذا العمر يعتقدون ان قتل الرجل الاعزل خطية لا تغفر لانه لا يقدر على المدافعة عن نفسه فاخبرتهم بكل اختصار كيف حماني الملك المريض ضد كل عصبته وفي ذات اليوم الذي سمحت له به وحدثتهم كيف حاصرتنا الاعداء وكيف هجموا علينا وقتلوا اعداءنا واصحابنا فقال لي لوبستر

— لا تحقد علينا من جهة المدافعين عنكم الذين اذقناهم كاس المنون فاننا كنا لا نعرفهم وزيادة على ذلك فمع كل منا أربع غدارات مسدسات الطلقات فتقاوم اثنين وسبعين رجلاً فلترجع الاعداء لتذق حتفها اما هكذا يا جيكامو

— اني احارب جيشاً من الاسود الضواري وليس الا من باب الخطأ قد خدمت في القنصلاتو لاجل ختم المكاتيب بالشمع الاحمر

وحالما رجع العدو من اندهاشه جدد المحاصرة وتقدم ثلاثة أو اربعة منهم ليرونا فنظروا القتلى واخبروا كولتزيدا الذي لا يدري من هم هؤلاء الثلاث الصواعق الذين اذاقوا اصحابه واعداه الموت الاحمر ولكنه اذ افتكر بنجاته من تحت حكم ملك الجبال امر بهدم ما بنيناه لاجل المدافعة عنا فوقوع الاشجار اعلن لاصحابي لزوم استعدادهم للنزال ثانية واما الحاج ستافروس فلم يلتفت الى ما هو جارٍ حوله بل سأل جان هاريس

— اين فوتين ؟

— عندي في الفريقاط

– ألم تأتها بمكروه ولم تضرها بشيء ؟

– هل تظنني مثلك أحب تعذيب البنات الصغار ؟

– انني وحش يا سيدي فسامحني وعدني بانك تعفو عنها

– ما تريد ان اعمل بها فحيث قد ارجعت الان هرمان فسارجعها لك حينما تريد

– بدون فدية ؟

– اف لك يا تعيس

– سترى الآن اذا كنت تعيساً

وبعد ما قال هذا مد يده الشمال حول عنق ديمتري وجرد سيفه من غمده ولكن بكل صعوبة نظراً لضعفه وتقدم نحو السلم حيث كانت اصحاب كولتزيدا واقفين منتظرين أمر الهجوم علينا فتأخروا الى الوراء حال رؤيته كما لو شقت الارض ليخرج منها صاحب الدينونه وكانوا نيفاً وعشرين رجلاً بالعدد الكاملة فلم يتجاسر احد منهم ان يدافع عن نفسه ولا ان يعتذر ولا ان يهرب بل كانوا يرجفون كلهم كالقصب عند هبوب الريح امام ملك الجبال القائم من بين الاموات فتقدم الحاج ستافروس نحو كولتزيدا الذي كان اشد اصفراراً واكثر خوفاً واضطراباً من الجميع وبضربة لا اقدر ان اعبر عنها جثته عن رأسه ثم ارتجف وسقط سيفه من يده فلم يتنازل ويلتقطه بل صرخ قائلاً

– سأحمل غمدي فارغاً من الآن وصاعداً فالنصل لا ينفعني بشيء لاني قد انتهيت !

وعبثاً تقدم كل رفاقه القدماء طالبين العفو والسماح عما صدر منهم ويسترحمون بان لا يتركهم لانهم لا يعرفون ماذا يحل بهم فلم يلتفت اليهم بل ترجانا ان نقوده الى قرية كاستيا حيث يستأجر دواباً ويذهب الى مينا سالمين لاجل فوتين فتركتنا اللصوص نذهب بدون معارضة وبعد ما مشينا عدة خطوات لحظ علي اصحابي باني امشي بكل صعوبة وسألني هاريس

– ما بك ياهرمان ؟

فنظر اليّ الملك حينئذٍ نظرة فهمت معناها فاجبت هاريس

– اردت الفرار مرة بطريقة مخطرة فسقط على رجليّ فالمتاني فنزلنا الجبل بكل هدو وبقينا نسمع على بُعد ميل ضجيج اللصوص الذين كانوا يتجادلون بما يعملون وكلما كنا نقترب من القرية كلما تحسن الطقس وانقشعت الغيوم واخيراً لما ارسلت الشمس أشعتها على الارض سررت جداً وفرحت الفرح العظيم بهذا المنظر الطبيعي الجميل ولكن الحاج ستافروس لم يهتم بمناظر كهذه بل كان يتعجب كيف يقدر ان يغير عوائده وهو في هذا العمر وعند دخولنا القرية لاقانا الراهب وبيده صحن من الشهد واعتذر منا قائلاً – كنت أريد ان ازوركم ولكني سمعت صوت اطلاق الرصاص فخفت فسلم عليه الملك بهز الايدي وتركه وبقينا نمشي الهوينا الى النبع حيث ان خيل أصحابي تنتظرهم واخبروني هناك بان المسيو ميرينه كان معهم ولكنه نزل عن حصانه ليرى حجرة قديمة غريبة ولم يرجع بعد فرفعني جيكامو فوندي على ظهر الحصان كريشة ونهض الملك على جواده بكل صعوبة وساعده ديمتري على الركوب وبعد ما امتطى هاريس وابن اخته جواديهما تقدمنا المالطي وديمتري والدليل مشاة .

وعلى الطريق تقدمت من هاريس وسألته كيف وقعت بنت ملك الجبال تحت حكمك فقال لي :

« – وصلت وبارجتي مسروراً من ذاتي مفتخراً باني قد قتلت نيفاً وعشرين « نفراً من لصوص البحر ودخلت البيره يوم الآحد الساعة السادسة ونزلت البر « حيث قضيت ثمانية ايام مع الضباط فقط وتأملت بأني سأتسلى كثيراً في البر « فأستأجرت عربة عند المينا لكل ذلك النهار وتلك الليلة ودخلت منزل كريستوديل « فرأيت على مائدة الأكل مارولا ووليم لوبستر ومسيو ميرلينه وفوتين مزينة « اكثر من عادتها وأخبرني ابن اختي وليم بحديثك فضجت كفحول الجمال لانني لم « اكن ثم في اتينا ولكن وليم لوبستر اكد لي بانه بذل جهده ليخلصك فجال البلدة « كلها ليجمع خمسة عشر الف فرنك فأقرباه ليسوا مرخصين له الا بقيمة زهيدة « بالاختصار لم يجد دراهم فتشكى للمسيو ميرلينه ولكن المذكور ادعى بانه قد اعاد « دراهمه كلها لاصحاب له بعيدين جداً اعني في آخر الدنيا فصرخت حينئذٍ

« — أواه منك يالوبستر ينبغي ان تدفعوا لهذا اللئيم عملة من الرصاص فيا بنا
« اذاً لنصطاد هؤلاء اللصوص فكم يبهج قتل طريدة تدافع عن نفسها فاستعد
وغداً نذهب .

« فضرب جيكامو بيده على الطاولة ولا حاجة لوصف ضرباته فانك تعرفها
« وحلف بانه يرافقنا ولكن بشرط ان نعطيه بندقية ذات طلق واحد والمسيو ميرلينه
« تهيج كثيراً وقال بانه سيلطخ يديه بدم اللصوص وبعد ما خشن صوته الناعم
« متقهقهاً وقال وهو مظهر قبضته بان شغل الحاج ستافروس يتعلق معه فكنا
« مسرورين جداً وخصوصاً جيكامو الذي كاد يطير من الفرح حتى ان اطراف فمه
« كادت تدخل باذنيه وصار يكسر من الجوز بكثرة وأما بقية الضيوف فكانوا
« حزانى فصاحبة المحل مارولا كانت ترسم علامة الصليب الف مرة وديمتري صار
« يشخص بالسماء وكريستوديل قال لنا

« — ينبغي ان تفتكروا وتتأملوا قبلما تذهبون لمحاربة ملك الجبال واما البنت
« ذات الانف المسطح فكانت غريقة في حزن مضحك فكانت تتنهد تنهداً عميقاً
« ولم تعد تأكل فكنت أقدر ان أضع في عيني الشمال ما اكلته بذلك النهار — انها
« لابنة جيدة ياهريس

« — انا لا اجدها كذلك فاني لا اسامحها ابداً على فسطانها الطويل الذي كان
« دائماً تحت ارجل كرسيي ولا رائحتها المسكية التي كانت تفوح منها ولا نظرها
« الناعس الذي كان يجول من جهة الى اخرى وعند الساعة التاسعة لم تعد تقدر على
« البقاء فذهبت الى مدرستها وبعد مرور عشر دقائق استأذنت من الحضور بعدما
« تواعدنا اللقاء غداً وايقظت السائق واحزر من وجدت في العربة ؟ فوتين
« وخادمة اللوكندة وحالما رأتني وضعت أصبعها على فمها فدخلت الكروسة ولم اتلفظ
« ولا بكلمة وبعد مشي ربع ساعة قالت لي فوتين باللغة الانكليزية وبلفظ جيد

« — يا مسيو هاريس احلف لي بانك تعدل عن مشروعك ضد الحاج
« ستافروس فصرت اضحك فصارت تبكي واكدت لي باني ساقتل فاجبتها باني انا
« الذي اقتل الآخرين فلم ترد ان يقتل الحاج ستافروس فاردت معرفة السبب

فقلت لها هل يحبك أبوك ؟ — أكثر من عينيه
هل يرفض اجابة طلبك ؟ — لا فانه يعطيني كل ما يلزمني
واذا طلبت منه ان يرسل لنا هرمان هل يطاعه من الاسر ياترى ؟ — لا
— فاذاً ياسيدتي لم يبق لي الا واسطة واحدة وهي اني اقودك الى بارجتي
وابقيك عندي كرهن لحين رجوع صاحبي هرمان
— كنت مزمعة ان أبدي لك هذا الفكر لان بهذا الشرط يترك والدي
صاحبك فقاطعت عند هذا الكلام حديث هاريس وقلت له
— ألا تتعجب اذاً من هذه البنت التي تحبك بهذا المقدار حتى سلمتك ذاتها
— لا محل للعجب فانها أرادت تخليص حياة ابيها لانها كانت تعرف باننا قوم اذا
أشهرنا الحرب لا ينجو أحد من أيدينا وزد على ذلك اني وعدتها بمعاملتها كما يليق بها
ثم أنزلتها من العربة وأخذتها في قاربي مع الخادمة الى البارجة وكتبت لملك الجبال
تحريراً وأرسلته مع الخادمة لتبعثه الى الحاج ستافروس مع ديمتري وبقيت منتظراً
جواب ابيها وبعدها فرغ صبري ورجعت الى مشروعي الاول فأخذت غداراتي
وذهبت مع أصحابي وكلما حدث بعد ذلك فانك تعرفه فالآن حدثني انت فان معك
لا محالة حديث طويل .

— سأحدثك الآن ولكن دعني أقول كلمة لهذا الحاج ستافروس فاقتربت من
ملك الجبال وقلت له بصوت منخفض
— لا أعلم لماذا قلت لك ان فوتين تحب جان هاريس فاظن بان الخوف والرعبة
قد أذهلا عقلي لاني تذكرت الآن وأحلف لك برأس أبي بانها معه كأخت
فشكرني الشيخ بهز يدي ورجعت أحدث هاريس باخباري مع ماري آن
— حسن حسن ! لا ينقص هذه الرواية الا قليل من العشق
— ان العشق لم يدخل ولا مرة بموضوعنا ولكن المحبة البسيطة الراسخة تكفي لجعل
الزيجة سعيدة من الطرفين
— تزوج ياصاحبي واجعلني شاهداً على سعادتك
— انك تستحق ذلك ياجان

اني أشتهي ان أكون حاضرًا حين تراها لاول مرة

— اني أريد ان أدهشها فسأريها حالي بغتة

— فكر حسن ! فاني مدعوٌ معك الى الرقص في البلاط بعد الغد . وكانت الساعة السادسة مساء لما حملنا القارب الى البارجة فأخذت النوتية ملك الجبال الى ظهر المركب حيث سقطت فوتين باكية بين يديه وانسرت كثيرًا برجوع كل الذين تحبهم سالمين من المعركة ولكنها تأثرت من أمرين من نظرها أبيها الذي قد ظهر عليه الكبر كثيرًا في هذه المرة ومن نشوفة هاريس الذي ارجعها للملك بكل حرية وعدم تكليف قائلاً

— لا لي ولا عليّ ! ارجعت لي صاحبي فهو ذا ابنتك ! والآن يا أيها الشيخ الطاهر تحت أي سماء تريد الذهاب لتفتش على من يشنقك ؟ لانك لست برجل تتأخر عن أعمالك

فاجابه بصوت لا يخلو من العنفوان

— قد ودعت اللصوصية للابد لانني ماذا أقدر ان اعمل في الجبال بعد ما فقدت رجالي فاكثرهم ماتوا وجرحوا والبقية تشتتوا واني لم اكن قادرًا ان أجمع عوضهم فاترك محلي للشبان واظن انهم لا يقدرون على تحصيل ما حصلته من الشهرة والغنى والجاه ولست اعرف شيئًا عما افعله بالباقي من عمري ولكني متأكد بان ايامي الاخيرة لا تكون اقل شهرة ولا انقص قيمة وفخرًا من ايامي الاول فعندي ابنتي لاربيها وسأبذل جهدي لاساعد الحكومة ببقايا افكاري وتجاربي وان حفظ الله بي قوة العقل والادراك فأصير رئيس الوزراء قبل مرور ستة اشهر !

الفصل الثالث عشر

دعوة الرقص في البلاط

فاخذني جان هاريس وهو بثيابه الرسمية الى منزل كريستوديل مساء الخميس الواقع في ١٥ اذار عند الساعة السادسة فلاقاني الفندقي وامرأته بكل بشاشة رغمًا عن

حزنهما وتنهدهما حين استماعهما سيرة ملك الجبال ومن جهتي فاني عانقتهما بكل مودة فكنت سعيدًا ولم اكن ارى حولي غير الاصحاب والاحباب وسررت خصوصًا لما أخبرني ديمتري بان مادام سيمون وابنتها واخاها مدعوون الى الرقص في البلاط فكنت اتمتع سلفًا بعظم الاندهاش الذي سأفاجيء به ماري آن وبعد ما قدم لي كريستوديل قدحًا من الخمر وشربته بكل رغبة صعدت سلم غرفتي ولكني قبل الدخول اليها افتكرت بلزوم مواجهتي للمسيو ميرينه فلاقيته ملقىً بين الاوراق والكتب والمحابر والاقلام منهمكًا على الشغل وبعد السلام والتحيات المتبادلة قال

— انك ترى امامك رجلاً اضناه التعب فقد وجدت قرب قرية كاستيا كتابة قديمة منعتني عن الذهاب لتخليصك والقتني بالعذاب منذ يومين ولم أقدر على حلها وحيث لم يرها أحد قبلي فيكون لي الشرف باكتشافها واتأمل باني اضع عليها اسمي فالحجر مركب من الكلس وبعض الاصداف علوه خمسة وثلاثين سانتيمتر وعرضه اثنين وعشرين لقيته بالصدفة على قارعة الطريق ورأيت عليه الاحرف التالية منقوشة بكل اتقان وقد نقلت هذه الاحرف الى دفتري وهي :

ف ٠ — ٢٠ ، ٢ ، ١ ، ٥ ، ٨ ، ١ ٠

فاذا قدرت على حل هذه الكتابة فقد اكدت مستقبلي واصير عضوًا بجمعية العلوم والانتيكات في فرنسا ولكني سأتعب كثيرًا فالقديم يحفظ اسراره قدر الامكان واست أدري اذا كان النقش من الكتابة العامية او الكتابة المقدسة وعلى كل حال فاعطني فكرك

— فكري يا سيدي فكر جاهل وعلى ظني انك وجدت حجرة موضوعة للدلالة على الحدود كما يصادف الانسان كثيرًا منها على الطرق والنقش الذي اشغل فكرك كثيرًا يمكن تأويله هكذا : فرسخ ٢٢ سنة ١٨٥١ : فمساء الخير يا سيدي ميرينة اني ذاهب لا كتب لابي ولالبس ثيابي الحمراء فتحريري لابي كان نشيد الانشاد موضوعه السعادة فتركت قلبي يملي على الورق ما يكن به من الافكار المطربة فدعوت عائلتي الى حضور احتفال زيجتي ولم أنس عمتي فاني دعوتها أيضًا ورجوت أبي ان يبيع كل املاكه حالاً ولو بأبخس الاثمان وان لا يترك اخوتي يتعاطون الاشغال

فاني احمل جميع العائلة على عاتقي واتكفل بالكل و بعد ما ختمت المكتوب سلمته الى ساع مخصوص ليوصله الى اليبره و يضعه في وابور الماني يسافر الجمعة صباحاً عند الساعة السادسة

وقبل الساعه التاسعة بقليل دخلت القصر وبرفقي جان هاريس فقط لان لويستر والمسيو مبرينه وجيكامو لم يكونوا مدعوين وكنت لابساً ثيابي الرسمية فبرنيطتي التى كان قد زال لمعانها لم يظهر هذا العيب عليها من شدة انوار الشموع وسيفي وان كان قصيراً ثمانية اصابع لم يؤخر بفضلي شيئاً لان الشجاعة لا تقاس بطول السيوف وقد كان يحق لي ان ادعى بطلاً بعد كل ما قد عملته في الجبال وا كمامي كانت قصيرة ايضاً ولكن لمعان تزركشها كان يدهش الانظار كما تنبأ عن ذلك أبي

فمحل الاستقبال المزين احسن زينة كان مقسوماً الى قسمين قسم بكراسي هزازات موضوعة وراء عرش الملك والملكة لاجل الجنس اللطيف وقسم بكراسي طبيعية لاجل الجنس النشيط فحال دخولي وجهت نظري لقسم النساء فماري آن لم تكن بينهن وعند الساعة التاسعة أتى الملك والملكة ومعهما الوزراء والكبراء والاميرات والسيدات وكان الملك لابساً كضابط في العسكر وكانت الملكة مرتدية أحسن الثياب فكل الجواهر والثياب المذهبة والمفضضة لم تنسى ماري آن فكنت شاخصاً نحو الباب منتظراً حضورها

فالامراء وذوو الرتب العالية اجتمعوا حول الملك والملكة يتحادثون ويتسلون واما أنا فكنت في آخر صف مع جان هاريس وبينما نحن في الكلام اذ تأخر ضابط امامي بغتةً الى الوراء وداس على رجلي بعنف حتى اني لم املك نفسي من ان اصرخ فالتفت اليّ الرجل وعرفته بأنه القائمقام بيريكليس وكان قد نال موخراً نيشان المخلص فاعتذر مني وسألني عن صحتي فأجبته حالاً بأن صحتي لا تهمه وهاريس اذ كان يعرف تاريخي من الاول الى الآخر قال له بكل ادب :

— أليس لي الشرف بأن اتكلم مع القائمقام بيريكليس ؟

— بلى يا سيدي

— قد سررت جدا من مصادفتك اتريد يا سيدي ان تدخل قليلا محل اللعب فانه لا يزال خاوياً فنكون به وحدنا

— تحت امرك يا سيدي

وتبعنا المسيو بيريكليس وهو يتبسم ولكن كان اصفر كمريض خارج من المستشفى ولما دخلنا الغرفة وقف امام هاريس وقال له

— اني انتظر اوامرك يا سيدي

فتقدم هاريس وانتشل الصليب والشريطة عن صدر القائمقام ووضعها بجيبه قائلاً

— هذا كل ما كنت اريد ان اقول لك

— ما ذا يا سيدي ! صرخ القائمقام بصوت عال بعد ما تأخر خطوة الى الوراء

— ارجوك ان لا تصرخ فان كنت تهتم بأمر هذه اللعبه فارسل غداً اثنين من أصحابك ليأخذوها من جان هاريس قبطان البارجة « ذي فانسي »

— يا سيدي لا اعلم بأي حق تأخذ مني صليباً يساوي خمسة عشر فرنك ثمن وستجبرني ان اقيده عندي مصروفاً

— لا يا سيدي فهو ذا ليرة استرلينية خمسة عشر فرنك ثمن الصليب وعشرة ثمن الشريطة ولو بقي معك شيء لرجوتك ان تشرب به خمراً على صحتي

— ليس لي الآن الا ان اشكرك

وسلم علينا بعد ما وضع الليرة بجيبه وذهب والشرار يتطاير من عينيه و بعد ما ابتعد عنا قال لي هاريس

— من الاحسن ان تفارق هذه البلاد مع عروسك بأقرب ما يمكن فهذا العسكري لا يحبك ومن جهتي فان ابقى الا ثمانية ايام أي الوقت اللازم لاسترجاع ليرتي و بعد ذلك سأذهب الى بحر اليابان طبقاً للاوامر التي معي

— لقد تكدرت من ان غضبك قد اوصلك الى ما فعلته لاني لم اكن أريد الخروج من بلاد اليونان بدون نبتين أو ثلاثة من زهرة عين البقرة وقد وجدت واحدة منها ولكني نسيتها في علبتي التنك هناك

— اعطِ رسماً من نبتتك هذه للو بستر ولجيكامو فيذهبان عنك الى الجبل

ويرسلان لك ما يجدانه ولكن لا تتأخر عن ان تتزوج وتذهب من هذه البلاد .

وبقيت منتظراً شاخصاً حتى نصف الليل الى الباب وبعدها فقدت كل أمل بمشاهدتها وخرجت من محل الاستقبال الى حيث كان أربعة من مشاهير لاعبي القمار يتسلون فأخذت اتفرج عليهم وبينما انا ملته بالنظر الى أوراق الشدة اذا بقهقهة جعلتني اثب من الفرح فماري آن كانت ورائي ولم اتجاسر ان التفت اليها ولكني كنت أشعر بانها حاضرة فكاد السرور يخنقني ولم أعلم سبب ضحكها فمن يدري ؟ فلربما رآت زياً مضحكاً كما يصادف الانسان كثيراً منها خصوصاً في المحلات الرسمية واذا افكرت بان امامي مرآة نظرت فيها وصرت ارى عروسي بدون ان تراني فكانت بين امها وخالها أجمل وأظرف من ذلك اليوم الذي رأيتها به لاول مرة فعقد من اللؤلؤ كان يحيط برقبتها وهو يتموج على اكتافها وصدرها وأسنانها تتبسم كالالماس والنور يتماوج في حرس شعرها فلبسها كان بسيطاً وكانت واضعة من الازهار الطبيعية على خصرها وصدرها ورأسها فقد كاد يغمى علي من الفرح اذ عرفت بينها زهرة عين البقرة فكل السعادة سقطت علي دفعة واحدة من السماء فهل يوجد شيء الذ واسر من ان يفتش الانسان على النباتات في شعر محبوبته ؟ فكنت أسعد خلق الله انساناً حتى انني لم اتمالك نفسي من ان التفت اليها بغتة ومددت يدي نحوها وصرخت قائلاً

— ماري آن ! هانذا ! !

هل تصدق ياسيدي ؟ فانها تأخرت الى الوراء كمرعوبة ورفعت ما دام سيمون رأسها نحو العلى ونظرت الي بانفة وتعجرف يعجز عن وصفه البشر واقترب مني خالها ومسكني بيدي وأخذني الى ناحية وبعدما تفرس بي وفحصني كاني احد الحيوانات وقال لي

— يامسيو هل عرفك احد وقدمك لهاتين السيدتين ؟

— وما الحاجة لذلك ياسيدي شاربير ! ياعمي العزيز ! انا هرمان ! هرمان شيلتر ! رفيقهما بالاسر ومخلصهما ! فكم لقيت بعد ذلك من المصاعب والاهوال ! فسا احدثك عن ذلك في البيت !

— نعم نعم ولكن من العوائد الانكليزية انه لا ينبغي ان يتكلم انسان مع

السيدات الا بعد ما يكون قد قدم لهن وتعرف بهن

— ولكنهما تعرفاني ياسيدي وصاحبي العزيز شاربير ! فقد قدمت لهما خدمة تساوي مائة الف فرنك ! اتعرف ذلك ! عند ملك الجبال؟

— نعم نعم ولكنك لم تتعرف بهما

— ولكني ياسيدي عريس الفتاة وقد وعدتني امها الم تخبرك بذلك

— ليس ذلك قبل ان تتعرف بهما

— حسن عرفني بهما انت

— نعم نعم ولكن ينبغي ان تتعرف بي انا أيضاً

— اصبر . وركضت كمعتوه الطم هذا والكم ذاك بدون ان اعتذر ولا ان اقف ولكن سيفي اتى بين فخذي فسقطت على طولي وجان هاريس انهضني قائلا

— على من تفتش ؟

— هما هنا وقد نظرتهما ! سأتزوج ماري آن ولكن ينبغي ان اتعرف بها قبلاً حسب النظام تبعاً للعوائد الانكليزية ! اتعرف ابن هما الان ! الم تنظر امرأة كبيرة شنيعة المنظر ؟

— نعم رأيتها وقد ذهبت الآن مع ابنة ظريفة جداً

— لقد ذهبت ؟ ! فهذه ما دام سيمون ومعها ابنتها فياسفاه !

— هدىء روعك فسنجدهما غداً وساكلف سفير اميركا ان يعرفك بها

شكراً لك ياسيدي فتعال الان عرفني بالمسيو ادوار شاربير فقد كان يكلمني هنا منذ هنيهة .

فسحبت جان هاريس واخذته الى امام فندق الاجانب ولكن كان الظلام سائداً على كل المنزل فكل الناس في الفراش

— هيا بنا فلننم نظيرهم وغداً أدبر أمورك

فقضيت ليلة أشر وانحس واحزن من ليالي الاسر وهاريس كان نائماً معي أي لم ينم ابداً وعند الساعة الثامنة صباحاً اغمضت عيني ولم اشعر الا وديمتري داخل غرفتي وهو يقول : — اخبار جديدة !

کتابخانه مجلس شورای ملی

فسألته :— ماذا ياترى؟

— الانكليز يتان سافرتا - الى أين؟

— الى تريسته — أمؤكد ذلك؟

— نعم ياسيدي وقد قدتهما بذاتي الى الباخرة. ومن تاريخ ذلك اليوم يا سيدي لحد الآن وانا عائش كالبهائم فآكل واشرب وانام وارسلت نباتاتي الى هامبورغ بدون زهرة من عين البقرة وثاني يوم دعوة الرقص قادتني اصحابي في الليل وذلك خيفة من مصادفة عساكر بير يكليس فوصلنا البيره بدون مانع ولكن على بعد عشرين خطوة من الشاطيء اطلقت علينا اثنتا عشر بارودة غير منظوره فكانت علامة الوداع من بير يكليس و بلاده المحبوبة .

وبعدها ذهبت الى جبال مالطه وسيسيليا وايطاليا وزادت نباتاتي زيادة كبيرة وابي الذي اجرى عين العقل بعدم بيعه املا كنا اخبرني بان نباتاتي قد اشتهرت في هامبورغ ولربما بحال وصولي اتعين ولكن اصبحت لا اتكل على شيء ولا اعتمد على احد قبلما يتم حقيقة فهاريس الآن في اليابان وقبل سنة من الزمان ستصلني اخباره كما وعدني بذلك ولو بستر كتب الى رومية بانه لا يزال يتمرن على اطلاق الريفولفير وجيكامو يختم التحارير بالشمع الاحمر و يكسر الجوز مساء والمسيو مير ينه اكتشف لحجره حلاً غير الذي وجدته انا وسيطبع خطبة بخصوص ديموستينوس عن قريب وملك الجبال بعد ما تصالح مع الحكومة ابتدأ ان يشيد قصراً فاخراً لعشرين لصاً لم يخونوه ابداً و يشتغل الآن لتعيين وزيراً للعدلية ويقتضي له وقت طويل لتتميم مرغوبه وقد سلم ادارة بيته الى بنته فوتين وديمتري يذهب بعض الاحيان ياكل عندها ولكني ما عدت سمعت ولا خبراً عن مادام سيمون ولا عن مسيو شاربير ولا عن ماري آن واذا بقيت مدة اخرى هكذا من الزمان فلا اعود افتكر بها اصلاً ولكن الآن في بعض الاحيان احلم بأني اراها امامي واقفة تنظر اليّ بعينيها اللامعتين فاستيقظ وابكي بكاء مراً ولست اتأسف على المرأة يا سيدي ولكن على الغنى والجاه والسعادة انتهت ولله الحمد في البدء والنهاية